نور الدين بومبه

قصة الأديب اليونانى الكبير

ستراتيس تسيراكاس

ترجمة

يني ميلاخرينودي



مراجعة

الدكتور نعيم عطية

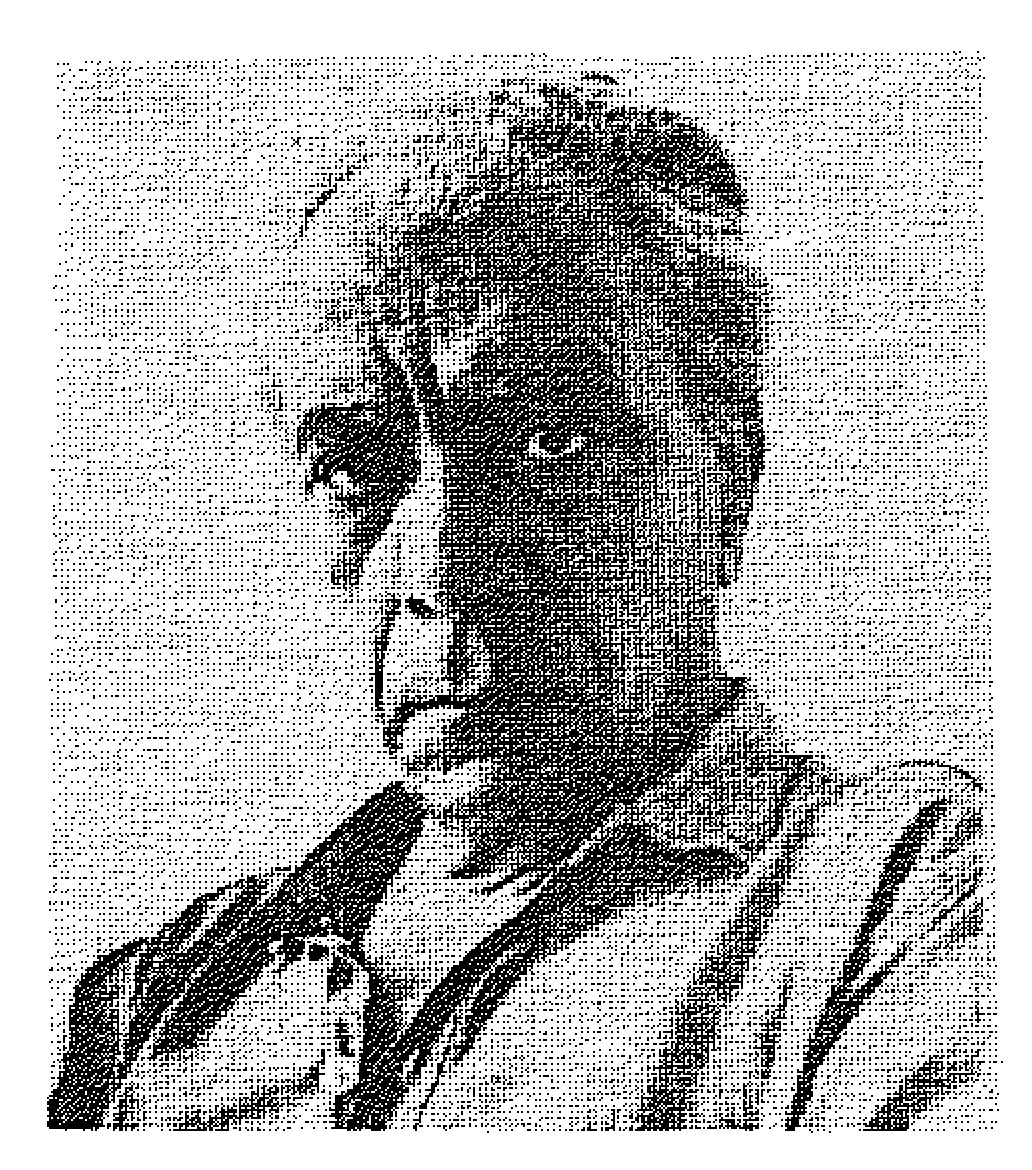
الطبعة الثانية

أهدى هذه الترجمة

إلى أحبائى ماريا - نيقولا - دينا

١٩٩٤

الطبعة الثانية



ستراتيس تسيركاس كاتب الثورة والحرية

يانيس تسيركاس هو الاسم المستعار لينى خدزياندريو الذى ولد عام ١٩١١ بالقاهرة لأسرة يونانية متواضعة كانت تسكن حى عابدين وتقييم على وجه التحديد بشارع عبد الدايم بذلك الحى الشعبى من أحياء القاهرة . وكان الصبى يقضى الإجازة الصيفية بالاسكندرية عند جده لأمه ستماتارى الذى كان يعمل بستانياً بحى الرمل . وفيما يلى ترجمة موجزة لحياة الكاتب وأعماله .

عام ١٩٢٣ : نشرت أول محاولة قصصية له بمجلة أدبية يونانية كانت تصدر بالقاهرة .

عام ١٩٢٨ : تخرج من المدرسة العبيدية اليونانية حاصلا على دبلوم فى التجارة وعين بالبنك الأهلى المصرى .

عام ١٩٢٩ : عمل بصعيد مصر فى ابوتيج وديروط كمحاسب فى البداية ثم كمدير فى محالج القطن . وقد عمل بصعيد مصر عشر سنوات .

عام ١٩٣٠ : أول نشر له فى مجلة باليونان ، كما نشرت بعض

قصائده الباكرة وترجماته فى مجلات يونانية بمصر واليونان . وفى نفس العام تقابل مع شاعر الإسكندرية الكبير كفافيس .

عام ١٩٣٣ : توفى والده . تنتقل العائلة إلى الإسكندرية حيث كان يحضر اليها من الصعيد لقضاء الاجازة .

عام ١٩٣٦ : تنشط حركة التنظيمات الشيوعية فى انحاء العالم ومن دعائم التنظيم الشيوعى اليونانى نجد ينى خدزياندريو .

عام ١٩٣٧ : تزوج من انتيجونى كيراسوتى ، وسافر معها إلى تشيكوسلوفاكيا وإيطاليا والنمسا وفرنسا واليونان .

يشترك فى المؤتمر الثانى للكتاب لحماية التراث ضد الفاشية بفرنسا . وفى هذا المؤتمر يكتب مع لانجستون هيوز «قسم» الشعراء إلى جارثيا لوركا . وبمساعدة اراجون يوزع هذا القسم فى المؤتمر ويوقعه أربعون من الكتاب العالميين .

فى نفس السنة ينشر أول دواوينه بعنوان «فلاحون» . وفى هذا الكتاب يختار [illegible] خدزياندريو لنفسه اسم شهرته [illegible] تسيركاس .

عـام ١٩٣٨ : ينشر ديوانه الثانى بعنوان «رحلة شعرية» .

عام ١٩٣٩ : يقيم بالاسكندرية ويعمـل مديرا لمصنع دباغة جلود . ومضى يعمل فى هذا المصنع حتى يوم مغادرته مصر عائداً إلى اليونان .

عـام ١٩٤٢ : تصدر صحيفة يونانية من أهم الصحف المناوئة للنظام الفاشى . وكان سترايتس تسيركاس ضمن سكرتارية التحرير . وخوفاً من انتصار روميل يذهب إلى فلسطين مع زوجته . وفى شهر نوفمبر من نفس العام يعود إلى الإسكندرية .

عـام ١٩٤٣ : نشاط مكثف ضـد الإحتلال الالمانـى لليونـان وضد الحرب عموماً .

عـام ١٩٤٤ : تنشب حركة ثوريـة ضـد الملكية داخل جيـش اليونان المرابط بالاسكندرية ولكـن سرعان ما يتم اخمادها ، ترجم الكاتب مرارته لهذا الحدث فى مقالة نشرت بإحدى المجلات . فى نفس العام تنشر أول مجموعة قصصية له .

وطول سنوات الحرب يكتب ويراسل مجلات وصحفاً كثيرة فى مصر واليونان .

عـام ١٩٤٦ : تنشر قصيدته «الوداع الأخير»

عـام ١٩٤٧ : تنشر مجموعته القصصية الثانية تحت عنوان

«شهر ابريل هو أكثر صلابة»

عام ١٩٥٤ : تنشر مجموعته القصصية الثالثة تحت عنوان «نومة الحصاد»

عام ١٩٥٥ : يبدأ كتابة دراسته عن شاعر الاسكندرية كفافيس .

عام ١٩٥٦ : يكتب قصته «نور الدين بومبة» وعنها يكتب الكاتب ميجل ديديه : «القصة كتبت فى عشر أيام أثر تأميم قناة السويس وذلك خلال فترة الإنتظار والقلق من الهجوم المضاد منّ قبل الدول التى تحمى حملة الاسهم الأوروبية بشركة القناة . وفى أغسطس من نفس العام مع الدكتور إراكليس ماسخا والرسام اريستومينى انجلوبولوس يوجه نداء إلى المثقفين الانجليز والفرنسيين بمنع العدوان والاعتراف بحقوق مصر السيادية .

عام ١٩٥٨ : تنشر دراسته المستفيضة «كفافيس وزمانه» .

عام ١٩٥٩ : يحصل على جائزة الدولة عن عمله «كفافيس وزمانه».

عام ١٩٦١ : ينشر «النادى» وهى الجزء الأول من ثلاثيته الروائية «مدن بلا حكومة» ويطرد من الحزب الشيوعى بسبب هذا الكتاب . فى شهر ديسمبر

من نفس العام تتوفى والدته .

عام ١٩٦٢ : ينشر «ارياغنى» وهى الجزء الثانى من ثلاثيته الروائية .

عام ١٩٦٣ : يؤمم مصنع دباغة الجلود الذى يعمل به . يترك مصر ويقيم بأثينا ويعمل بصحيفة «تاخيذروموس» .

عام ١٩٦٥ : ينشر «الوطواط» وهى الجزء الأخير من ثلاثيته الروائية الشهيرة .

عام ١٩٦٧ : تمنع الحكومة العسكرية الديكتاتورية فى اليونان نشر ثلاثيته .

عام ١٩٦٨ : ينشر عدد من ترجماته .

عام ١٩٧١ : تنشر دراسته «كفافيس السياسى» .

عام ١٩٧٢ : تفوز ثلاثيته فى فرنسا بجائزة أحسن عمل روائى أجنبى .

عام ١٩٧٣ : تترجم إلى الفرنسية قصة «نور الدين بومبه» تحت عنوان «رجل النيل» بقلم السيدة كاترين لروڤر وفى نفس العام تنشر «يوميات الثلاثية» .

عام ١٩٧٦ : ينشر «الربيع الضائع» وهى الجزء الأول من ثلاثيته الجديدة التى لم يتمها .

عام ١٩٧٨ : تنشرر قصصه فى مجلد واحد تحت عنوان

«القصص» .

عام ١٩٨٠ : فى ٢٧ يناير توفى الكاتب الكبير . كما نشر ايضاً حال حياته الحافلة عدداً كبير من الدراسات التى قام بها لكتاب وشعراء يونانيين ، وترجمات كثيرة قام بها لأعمال أدبية أجنبية لايتسع المكان لذكرها .

عن القصة

قصة «نور الدين بومبة» من أجمل قصص ستراتيس تسيركاس .

وقد استعان الكاتب فيها بأسلوب جديد عليه ولكنه وظفه توظيفاً جيداً لخدمة القصة . فقد استعمل الكاتب فى هذه القصة اسلوب الصحفى الذى يستمع إلى حديث شخص عن بعض الاحداث المعينة وفى نفس الوقت يحكى عن تجربته ومعرفته هو لتلك الاحداث ذاتها .

فالراوى على معرفة شخصية بابطال قصته ماعدا بعض الشخصيات التى لم تكن موجودة بديروط حينما كان يعمل هو هناك وبهذه الطريقة نتعرف على شخصيات القصة من وجهتين : الأولى وجهة نظر الكاتب ، أى المثقف الذى يرى الأمور على نحو قد يختلف عن وجهة نظر الأسطى بوليڤيو ، العامل البسيط ، والعاطفى الصريح .

ومما هو جدير بالذكر فى هذه القصة اننا بصدد تحليل للحالة الإجتماعية فى منطقة من الصعيد وفى اعوام محددة هى أعوام ثورة ١٩١٩ والاعوام التى سبقتها وتلتها بقليل ايضاً . والتحليل الذى تتضمنه القصة يؤدى من وجهة نظر اجنبيين عاشا

فى خضم احداث هذا المجتمع المصرى ، فهما ينتقدان الإحتلال البريطانى لمصر والإستغلال الاجنبى لها حتى ولو كان هذا الاستغلال يأتى من مواطن يونانى مثلهما .

وهنا يدافع ستراتيس تسيركاس عن نظرته إلى العدالة الإجتماعية ، فينتقد قلة من اليونانيين جرفهم حبهم للمال إلى الانحراف والاستغلال والظلم ، ويناصر أغلبية اليونانيين الذين عملوا وانتجوا فى هذا البلد كأنه بلدهم أيضاً .

وفى هذه القصة نرى ملحمة شعب يناضل من أجل حريته . وقد كان نور الدين بومبة مجرد مواطن عادىٍ ، ولكن بسبب اعتداءات الانجليز واستفزازاتهم يتحول من مجرد مراكبى مسالم إلى انسانٍ ينتقم لشرفه وعرضه ، ويلتحم انتقامه الشخصى بالاحداث الوطنية التى مر بها الشعب كله لنيل استقلاله ، ويصبح «نور» فى النهاية بطلاً يقسم الناس باسمه ، وما عادوا يصدقون أنه مات ، رغم أن الانجليز اعدموه فى سجن اسيوط فعلاً ، وذلك لأن الشعب يمضى متشبثاً بالرمز والأمل .

ويؤكد الكاتب فى قصته حبه لهذا الشعب ، ومشاركته لقلقه وتطلعاته واحلامه ، فهو ليس نضالاً مصرياً فحسب ، بل هذا نضال الشعوب المحبة للحرية والسلام جميعاً ، نرى العامل البسيط . الأوسطى بوليڤيو اليونانى يشارك شعب ديروط نضاله ،

ويرفض روزاكيس مواطنه ورب عمله . وقد كان هذا أمراً طبيعياً ، فقد كتبت هذه القصة فى الأيام العشرة الأولى لاعلان تأميم القناة ١٩٥٦ . وقد كانت تلك أوقات عصيبة لما شابها من انتظار قلق لاحتمالات ردود أفعال الدول الأجنبية الاستعمارية . والكاتب كيوناني ولد وعاش فى مصر يعترف بحقها فى تقرير مصيرها ، واعلاء سيادتها على ارضها . وقد ناضل الكاتب من أجل ذلك بما كتبه من مقالات آنذاك وأيضاً من خلال قصته هذه ، وقد بعث عام ١٩٥٦ بنداء إلى مثقفى فرنسا وإنجلترا لحث دولتيهما على وقف العدوان ، والاعتراف لمصر بحق تقرير المصير .

هذا هو ستراتيس تسيركاس الكاتب الذى عاش حياته مناضلاً من أجل الحرية ، مدافعاً عنها ضد كل تهديد تتعرض له ، وقد كان أقوى أسلحته فى هذا قلمه وكلمته الأبية ، التى انتشت بحب مصر ، والعرفان بالجميل لها .

ي . م .

الفصل الأول

تذكرت الاسطى بوليفيو عندما بدأ جمال عبد الناصر يوزع السلاح على الشعب . كان الاسطى بوليفيو يعرف قصة يحتفظ بها لنفسه ولا يريد أن يحكيها لى ، وفى كل مرة كان يقول «دعك من هذه القصة . لى زوجة وأولاد . ربما لو تغيرت الاحوال سوف أحكيها لك» .

رجوته أن يحكيها لى أكثر من مرة . كانت قصته هذه تتعلق بثورة ١٩١٩ . وهذا كل ما كنت أعلمه ، ولكنه كان يرفض باصرار . ثم مضيت بعذ ذلك إلى صعيد مصر للعمل هناك . ومرت سنوات ولكن هذه القصة ظلت تشغلنى . مرت عشرون سنه وفى عام ١٩٥١ بدأت مصر تطالب بجلاء الإنجليز وقامت حينذاك مظاهرة اشترك فيها نصف مليون متظاهر . اشتدت لهفتى لسماع قصة بوليفيو الذى كان قد ترك العمل بالصعيد ، وأصبح يعمل الآن بالقرب من الإسكندرية . ذهبت لمقابلته ، وحكيت له عن المظاهرة ، وصفتها له مستثيراً اياه بمزيد من التفاصيل ، وسألته « ماذا تخاف الآن ؟ »

قلت :

« لماذا يا بوليڤيو ؟ »

سألنى « هل رأيت أسلحة فى المظاهرة ؟ »

أجبت « أجل ، رأيت » .

« من كان يحملها ؟ »

قلت له «الشرطة»

« ومن ايضاً ؟ »

«الجيش»

« من يتحكم فى الشرطة والجيش ؟ »

«الحكومة»

« ومن يتحكم فى الحكومة ؟ »

فهمت إلى أين يريد أن يصل بكلامه ، وأجبته :

«فاروق»

« ومن يتحكم فى فاروق ؟ »

«الإنجليز»

فقال لى « أفهمت الآن ؟ »

حاولت أن أقنعه بطريقة أخرى . قلت له : «الناس تموت بين لحظة وأخرى يا أسطى بوليفيو ، فلو أنتظرنا حتى يحمل الشعب سلاحه قد نكون فى عداد الأموات آنذاك ، وتضيع القصة . »

«دعك من هذه الالاعيب . إنى أكبرك بعشرين عاماً فهل سنموت معاً ؟ ربما لايطول بى العمر كى أرى الشعب يهب حاملاً سلاحه . أما أنت فبالتأكيد سترى ذلك . زرعت البذرة فى أرض

خصبة وستنبت . وعندما يحين الوقت ستركب القطار وتذهب إلى هناك . الجميع يعرفونك فى ديروط . وستعرف القصة من أهلها .

سوف تتكلم الناس بحرية وسوف تلتقط التفاصيل من هذا وذاك ، فما الذى لن تعرفه اذن ؟ السر الذى احتفظ به أنا ؟ انك لن تكون بحاجة اليه بعد أن أموت »

تركته وأنا حزين . ولم أره خمس سنوات ، لكننى قررت الآن أن أحاول للمرة الأخيرة . كنت قد نسيته لكننى أدركت الآن كم كانت صحبته وسهراته والقصص التى كان يرويها تبقى فى اعماقى تروى عطش السنين التى أمضيتها فى الحر والغبار بأعماق الغربة المريرة .

كان الخبز الذى نأكله فى ديروط مراً ، لأنه كان بعرق الفلاح معجوناً ، ويفوح برائحته المرة .

وعندئذ بدأ يشرح لى الأمور قائلاً : «إنك مخطىء ، تلك رائحة بذور الحلبة التى يضعونها فى كل شىء . أنهم يخلطونها بالدقيق ويطعمون بها مواشيهم وطيورهم . إنهم يضعونها فى ماء مغلى ويشربونها ، لذلك فأنت تجد هذا الرائحة فى اللبن . وفى الماء ، بل وفى الهواء أيضاً حتى عرقك أنت ، سرعان ما يفوح مثل الفلاحين برائحة الحلبة .

أما الغبار فكان محرقاً عنيداً يملأ الفم . يسد الانفاس

ويخدش الجفون ، ويجعل ضوء السماء غير محتمل . وفى ناحية أخرى نجد المسك كمميز طبقى رائحته ثقيلة . يتعطر به كبار الأعيان والتجار والعمدة واتباعه الجشعون وبعض الرهبان من الدير القبطى على حدود الصحراء الليبية الذين كانوا يأتون إلى المدينة لشراء الاقطان .

ولكن فى الليالى يضحى الجو رطباً ، وتفوح ديروط برائحة الماء والشجر الذى يغمر جدائله فى القنوات حاملاً زهور البنفسج ويضوع الماء بأريج البرسيم . أما وقت الفيضان فكانت تسود رائحة الطمى . وكان ثمة شلال يملأ الكون بصوت مياهه المتساقطة على المياه المنسابة تحته . كما كان يسمع صليل السلاسل الرافعة لألواح الصلب ، وتغطى الكبارى غمامات من رذاذ ماء خفيف . . وعلى شاطىء الترعة الكبيرة يخيم ضباب يلف اضواء المحطة والمقاهى ، فتبدو المصابيح على الجسر فى خضم هذا الضباب كأنها بالونات تسافر عبر السماء . وكنت تشم رائحة السمك التى لم تكن مثل تلك الرائحة التى تفد من البحر ممزوجة بالملح ، بل كانت شيئاً آخر ، شيئاً حلواً وحريفاً فى الوقت ذاته . ثم تأتيك من بعيد ، من داخل الأرض الداكنة ، رائحة الخضرة ، ودخان نار مشعلة . وفجأة تنفذ اليك رائحة كريهة ، فقد كانت الترعة تحمل تارة جيفة حمار ، وتارة جيفة خروف تطرق بوابات

القناطر الصلبة كى تستكمل رحلتها إلى البحر ، وهى رحلة ماكانت تكملها قط .

كانت ديروط مركزاً من مراكز الرى الهامة ، ومفتاحاً يوزع الماء من قناة الإبراهيمية الكبرى إلى قنوات أصغر لرى المنطقة التى كان بها ثمانى قناطر . اذكر عند الفيضان كانت البوابات تفتح شيئاً فشيئاً فيرتفع منسوب القنوات ، ويظهر الصيادون حينذاك علـــى الكبارى ، هواة كانوا أو محترفين ، يمارسون الصيد . كان كل من لم يوفق فى الحصول على قوت يومه بعملٍ فى هذه الأرض الغنية يجىء ليصطاد لقمة عيشه ، كى يتمكن من المضى على قيد الحياة ويكمل مسيرته . كان الصيادون يمسكون اعواد بوصٍ يربطون بأعلاها خيطاً عند نهايته ثقل وسنانير بغير طعم . كانوا ينحنون على البوابات ، ويدلون بالسنانير فى الماء الهائج فكانت تعلق بها اسماك من شتى الأنواع والأشكال . وعندما يهبط الليل بسواده الحالك ، يقوم الخفراء بالصيد أيضاً . كانوا يصطادون السمك الكبير ، كما كانوا يأخذونه من الآخرين بالقوة . ثم يبيعون لنا بعد ذلك حصيلتهم . وكان طعم هذه الاسماك ممتزجاً بطعم الطين .

الفصل الثانى

عندما رآنى بوليفيو أخذنى بين ذراعيه ، وراح يمطرنى بقبلاته ، فيسرى فى اذنى صرير طقم اسنانه الذى كان قد أعده له صانع اسنان فى الصعيد لا يجيد صنعته ، فلم يكن الطقم ينطبق على أكمل وجه . وكلما ضغط فكيه صدر عن الطقم ذلك الصوت القمىء ، فاذا فتح فمه ليضحك بدا بين اللثة وخامة الاسنان الصناعية فراغ أسود يبدد حلاوة ضحكته . وابتدرنى قائلا «صح النوم ، منذ خمسة عشر يوماً يضج الريف هنا بالسلاح ، وأنت مشغول عن ذلك» وكانت املاك الشركة تقع على مبعدة ، فاستقل بوليفيو عربة صغيرة ، وأخذنى معه إلى هناك . وبعد مسافة قليلة وقف بى عند شجرة ضخمة ، وقال لى وهو يضع كفه على اذنه اليمنى :

– هل تسمعها ؟

ومن بعيد وفد ، مثل انفاس من الصلب حافلة بالتنهدات ، صوت ماكينة تعمل بالديزل . قلت :

– انها خاريكليا !

– هى تغرد تماماً كما كانت تغرد أول يوم بدأتُ فى تشغيلها ، منذ خمسين عاماً مضت . فليحمها الله من كل حسد .

ويتلفت باحثاً عن قطعة خشب يلمسها درءاً للحسد .

وكان «خاريكليا» اسم امه التى افترق عنها منذ أن كان فى سن العاشرة . تركها فى كاستيلوريزو باليونان ، ومنذ ذلك الحين لم يرها . وفى مصر حيث «يغترف الناس الجنيهات من الشوارع» علمه مهندس ميكانيكى جمع بين الجنسيتين السوسرية والألمانية أصول الصنعة . كان الصبى بوليفيو يناوله المزيتة والمفاتيح اثناء عمله . ويصب له الماء اذا ما فرغ منه كى يغسل يديه . وحتى يستطيع هيجلار المضى فى العمل كان يضع إلى جواره زجاجة الويسكى . ويشرب حتى يسكر فيبدأ فى السبابَ صائحاً . «ايتها الحيوانات ! ايتها البلد القذرة ! » لكنه كان يربح من عمله الكثير . جاء إلى الصعيد فى مطلع القرن ينصب ماكينات الديزل للرى ولطحن الغلال فى المزارع الكبيرة . وفى ديروط طلب منه روزاكيس رب العمل الذى كنا نعمل عنده ماكينة من هذا القبيل ، وطلب هيجلار مالاً كثيراً لقاء تزويد روزاكيس بماكينة عملاقة قوتها ٢٥٠ حصاناً . تظاهر روزاكيس بأنه لايكترث لذلك ، فقد كانت لديه خططه . وبعد خمس سنوات هدم المطحن وشيد محلجاً للأقطان ، وكان الأول من نوعه فى المنطقة ، وربح من ذلك ثروة كبيرة .

وعندما وصلت الماكينة إلى مزرعة روزاكيس فى ديروط وفتحت الصناديق تحت شجرة التوت الضخمة ، جن جنون بوليفيو وهام

حباً بالماكينة التى لم يرَ لها مثيلاً من قبل . والتصقت روحه بها ، لاتريد أن تفارقها .

وجاء اليوم الذى أصبحت الماكينة مهيأة للعمل ، فذهب بوليفيو إلى روزاكيس ، وقال له :

– خذنى معها . أريد أن أعمل هنا ، مع هذه الماكينة ولا يهمنى الأجر .

قال هذا الكلام بالعربية للالمانى السوسرى هيجلار ، والدموع تطفر من عينيه . فغضب وفتح زجاجة خمر جديدة ، وقال :

– فى صحتكم . أنتم لن تفلحوا ابداً . أنتم عاطفيون أكثر من اللازم .

لم يفتح روزاكيس فمه بكلمة . كانت هذه فرصة ذهبية اتيحت له . وقد كان هكذا على الدوام محظوظاً ، فقال له هيجلار ممسكاً ببوليفيو من ياقته :

– اسمع ، انى أعطيك عبداً للماكينة متيما بها وليس ميكانيكيا فحسب . كان الاجدر أن يكون هو صاحب الماكينة . سوف آتى مرة فى السنة لكى اطمئن على الماكينة ، حذارى اذن أن تستغل خبرة هذا الرجل الآن ، ثم تفرّق بينه وبين الماكينة فيما بعد . سوف يكون حسابك عندئذ معى عسيراً . انك تاجر ، وتبيع حتى روحك ايضاً . أينما ذهبت هذه الماكينة يذهب بوليفيو معها»

وقد حدث ذلك فعلاً . وبعد أربعين سنة عندما أخذ ورثة روزاكيس يبيعون تركته بأبخس الاثمان اخذت الشركة التى اشترت خاريكليا بوليفيو معها . كان عمر الماكينة انذاك أربعين عاماً ولكنها بدت على الدوام جديدة ، كما لو كانت قد أخرجت تواً من صندوقها .

قال لى بوليفيو : «دعك من هذا . وماذا يعنى لو أنى كنت عبداً لها أو هى عبداً لى . تتردى آراؤك فى الاقتصاد السياسى هنا فى الخطأ . انها علاقة روحية تلك التى تربطنى بها . اسميتها باسم أمى ، وكانت هذه الماكينة لى أماً بحق . جعلت منى انسانا ، مهندساً ميكانيكياً ، على حد قول الآخرين . بفضلها تزوجت ، وزوجت أولادى وهى لاتزال تمنحنى لقمة العيش حتى الآن ، وقد تقدمت بى السنين ولا أعرف ما الذى كان سيصير اليه حالى بغيرها ؟ »

هممت أن أقول له «ومع ذلك لم يكن بمقدروك أن تحصل على طقم اسنان جديد» . لكننى زممت شفتى وسكت . ثم سألته :

– هل صحيح أو ورثة روزاكيس دفعوا اليك مستحقاتك المتأخرة والتعويض ؟

وقال :

– أوف ! وهل بقى لهم شىء يدفعون منه هذه المستحقات ؟ تبدد الميراث كله كالدخان . أخترت موقفاً أكرم من موقفهم . انها

لعنة نور الدين بومبه . .

- نور الدين من ؟ اللص ؟ . . .

نظر إلى نظرة اختلط فيها الاستياء والاشفاق . وقال :

- اللص . . ! نور الدين لم يكن لصاً بل كان ريِّسا أى رباناً على مركب .

الفصل الثالث

وشرع بوليفيو يحكى قصته . فقال :

«عندما عرفت نور الدين نمنم أول الأمر كان رجلاً مرحاً وسيماً ، وبه ميل إلى الشجار . كان يرتدى سروالاً أسود فضفاضاً مما يرتديه المراكبية ، وحزاماً أحمر ، وصدرية بيضاء مطرزة لايرتدى من تحتها شيئاً . يضع على رأسه طربوشا أزرق قصيراً بزر منفوش ، وينتعل خفا أبيض نظيفاً . كان يبلغ من العمر عام ١٩٠٦ خمسا وعشرين سنة وكانوا ينادونه فى ديروط «بومبه» لأنه كان شديد القوة . وعندما أحضر روزاكيس الصندوق المعروف – وكان يزن ما يقرب من النصف طن – نقله نور وحده . وضع لفافة حول جبهته ، وحمل الصندوق على رأسه ، فنفرت عـروق رقبته كالحجر ووطأت قدمه لوحاً ضيقاً من الخشب سار عليه . ثم ثنى ركبته وانزل الصندوق الثقيل إلى الأرض بسهولة ، كما لو كان صينية فضية . وكان آخرون ينادونه «أبو شنب» بسبب شاربه الأسود اللامع الذى كان على الدوام يسويه براحه يده ، بادئاً بطرفه الأيمن ، منتقلاً إلى طرفه الأيسر .

كان فى ذلك الحين يملك مركباً واحداً ذا شراع ، يسيرها بنفسه ، ويرسوبها فى «النوبارية» ، الترعة الصغيرة ، التى كانت

تجرى من ديروط الى النيل ، وكان ينقل على متن مركبه الدواب ومحاصيل البصل والقطن حسب المواسم . ومن هناك ، عبر هذه الترعة كان ينقل إلى المدينة لوازمها وبضائعها .

وفى تلك السنين كانت الحكومة تطارد المراكبية وتقول عنهم أنهم يعملون فى تهريب الحشيش . وكان ذلك ادعاء كاذباً كما سوف ترى فيما بعد . وكانت الحكومة تضيق عليهم الخناق حتى يضطرون إلى التخلى عن عملهم بما تفرضه عليهم من ضرائب وما تطالبهم به من مستحقات ورسوم مقابل التراخيص وما تقتضيه من غرامات وما تحصله منهم لقاء المرور من الكبارى ، فضلا عما يحتجزه لانفسهم رجال السلطة من أنصبة . هذا بالأضافة إلى الأيام الضائعة ، ومنها يوم فى اسيوط للكشف على المركب فضلاً عن تعنت القائمين بالكشف والمعاينة ، فهذا لايرضينهم ، وهذا ليس سليماً ، والقلفطة ليست على مايرام ، والدهانات يجب أن تعاد ، ولماذا هذا الترقيع بالشراع ؟ ! وهكذا ، وهكذا ، وأنت تفهم ما الذى يحدث عندما تتعامل مع الإنجليز ، ولكن نور صمد لكل ذلك ونجح . ان النوبارية طولها خمسة أميال ، وقد وجد تجار ديروط أن من مصلحتهم إرسال بضائعهم مع نور حتى مجرى النيل . ومن هناك بعد ذلك تنقلها مراكب كبيرة إلى المنيا أو القاهرة أو إلى أبعد من ذلك . والا كان من اللازم أن تنقل البضائع على

مراكب كبيرة تسير ضد التيار بطول ترعة الإبراهيمية للوصول إلى اسيوط . وهذا الطريق طوله ستون كيلو متراً ، ثم تأتى المعاناة ازاء وجود الخزان هناك ، فيضطر أصحاب البضائع إلى نقلها على عربات نقل تخترق العاصمة كلها حتى تجد عند الناحية الأخرى مراكب فى النيل يحملونها البضاعة كى تمضى بها إلى مقصدها من جديد . ولم تكن المصاريف هى وحدها العقبة بل أيضاً كان ضياع الوقت .وكان أصحاب البضائع يوفرون بواسطة نور أسبوعاً كاملاً ، كما كانت مصاريفهم تنخفض بواقع النصف عما اذااستأجروا قوافل جمالٍ حتى النيل . اما السكة الحديد فكانت تكلفتها أغلى من ذلك أيضاً . ولم يكن نور يعرف فى العمل هزلاً ، ولايعرض المتعاملين معه لأى سرقات أو تأخير . . . وعندما كانت الريح تهمد والهواء يسكن كان نور يضع الحبل حول وسطه ، ويقفز إلى الشط ، ويمضى يجر المركب غير عابىء بثقل حملها ، ولا بالبرودة التى تسرى إلى قدميه فى ليالى الشتاء ، ولا بحرارة الشمس التى تمزقه فى أيام الصيف بلهيبها تمزيقاً . كما كان يغنى أيضاً وهو يمضى فى زحفه قدماً . وأصبحت القرى الصغيرة على ضفاف النيل تألف صوته ، وهو يغنى لنفسه . وقد اسمى مركبه «خير» . وقد جلبت له «خير» مركباً آخر بشراعين اسماها نور «أسيوط» وأصبح بعد أن ازدهرت الأعمال يختار

لمراكبه اسماء جادة وقد عهد «بأسيوط» إلى أخيه وأحد أبناء عمومته . أما هو فقد تولى ترتيب خطوط السير والمواعيد والأجور وكل شيء واحتفظ لنفسه بمركبه «خير» التى كانت اسهل حركة وأسلس قياداً من المراكب الأخرى ، وقبل انزال «أسيوط» إلى الماء حضر إلى نور ، ودعانى لشرب الشربات احتفالا بهذه المناسبة . وربما كان ذلك عام ١٩١٠ أو ربمـا قبل ذلك ، لا أذكر على وجه التحديد . كانت عيناه ضاحكتين ، عينان سوداوان ، اهدابهما طويلة مثل اهداب النساء . وقد أكد لى روزاكيس أن نوراً تجرى فى عروقه دماء بدوية ، ولكنه لم يكن فى الحقيقة سوى فلاح من قرية تقع شرقى النيل ، جارت عليها غوائل الطبيعة ، فمحتها من الوجود .

وقد أخذنى نور معه ذات مرة إلى قريته فى سنوات تعارفنا الأولى . كان الفصل شتاء ، وعبرنا النهر بقارب ، وكانت المياه ذات رونق جميل ، حلوة المذاق ، مما يجعلك وأنت ترشفها تشعر وكأنك أصبحت رجلاً آخر . كانت السماء زرقاء تناثرت على أديمها ندف وردية من السحب الصغيرة . وكانت الأرض التى خلفناها وراءنا خضراء تغطيها زراعات القمح والذرة .

وكان سعف النخيل متعانقا مثل تيجان ، وتبزغ أشجار التوت فوق هامات القرى الصغيرة الطينية ممتلئة متربة . ومن الحقول

التى تدفئها الشمس تفد رائحة ثقيلة . ووصلنا إلى «الكوم» . فوجدناها جبلاً وحجراً وتراباً أبيض رقيقاً مثل البدار . لاشجر هناك ولاسقف تحتمي تحته الأولاد . ولم ار فى المكان سوى حسك أصفر حافل بالاشواك . كان المكان جحيماً ملتهباً حقاً ولهذا كان الاهالى هناك يتمتعون باهداب طويلة مثل اهداب البدو . وكان المكان ينضح برائحة الاطلال وفضلات الكلاب ، رغم أننى لم أر منها واحداً . ولم يكن أهل الكوم يشعلون بالليل ضوءاً . ورأيت بعض الماعز تمضغ اوراقاً وبقايا من اعواد الذرة ، وكلها عجفاوات تبرز عظامها من تحت الجلد وبالمثل كان الاهالى أيضاً يرقدون فى الشمس . منازلهم مبنية من حجر يأتون به من الجبل ، وليس من طين ، مثل منازل الفلاحين . كيف كان أهل الكوم يعيشون ؟ ماذا كانوا يأكلون ؟ ما العمل الذى يعملونه ؟ قبل قدوم الإنجليز كانوا يعملون على المراكب . ولكن بعد النظام الجديد ، الذى وضعه الانجليز ، بحث كل مراكبى عن عمل له ولنوبه . وما كان باستطاعتهم العمل بالفلاحة ، فلم يكن لأيٍ منهم أدنى قطعة أرض كى يزرعها . وقد حولهم الجوع إلى قراصنةٍ . وكان بالامكان أن يتحول نور بدوره إلى ذلك ، ولكن هذا ما كنت لا أعتقده ، فقد كان يكره السرقة بطبعه ، وكان يصف أهل قريته بأنهم لصوص ، ويستنكر منهم ما انحدروا اليه . وقد كانت كل

المنطقة تخاف «الكوم» . وويل للمركب التى تمر ليلاً بمضيق جهنم . فعند منتصف المسافة كان ينتظرها الخطافون . وكانوا يبزغون من داخل الماء ويغرقون المركب . وكان التيار يقوم ببقية العمل . فقد كان يسحب البضائع إلى الشط ، حيث كانت نساء واطفال «الكوم» فى انتظارها . ولذلك فقد كانت المراكب تمر من هناك صباحاً ، أو تتجمع عند منفلوط . وتمر جماعات . ولكن ذات مرة كان أحد أصدقائنا من «فولوس» ينقل خموراً ، ويمر مع مراكب أخرى من هناك ووقع فى الفخ وكاد أن يهلك . وقد اعقبت هذه الواقعة أيام كثيرة مضت تتعالى من ناحية «الكوم» صيحات السكارى وضحكاتهم .

تسألنى وأين الحكومة ؟ لماذا لم تفعل شيئاً لوقف هذا ؟ واجيبك بأن وجود قرية القراصنة كان فيه مصلحة للانجليز الذين كانوا يحاربون المراكب والمراكبية ،وهناك شىء آخر أضيفه وهو أن أى تاجر كان يفلس فى البورصة ، ويريد أن يعوض خسارته كان يتفق مع أحد المراكبية ، ويشحن المراكب قطناً رديئاً يؤمن عليه بضعف قيمته الحقيقية ، وتغرق المركب بحمولتها . من الفاعل ؟ «كوم جهنم» . ويقبض التاجر ، ويقبض المؤمنون ، وتقبض البنوك . ماذا يفعل رجال الحكومة والإنجليز ؟ هل يغضبون الناس ؟

كان هناك خطر واحد . أن تكبر القرية وتوسع نشاطها ، ولكن كل شيء محسوب، والحل على الدوام موجود . كان رجال القرية يتعاطون الحشيش ، وكان لقزمٍ ذى لحية كبيرة «غرزة» فى الناحية الأخرى من القرية . حيث لم يكن باستطاعة المراكب أن ترى النور المنبعث من موقده . ومرة كل شهر أو شهرين كان القزم يأتى إلى المدينة ، ويتقابل مع قهوجى يونانى ، يدفع اليه الاموال ويأخذ الحشيش ، ومع الدفع يعطى تقريراً بما يحدث فى «كوم جهنم» . ثم كان القهوجى يذهب إلى العمدة «كمانى الكبير» عميل الإنجليز ، الذى كان يتستر على ناقل العميل الذى ينقل البضاعة من القاهرة كما كان يحمى القهوجى . كل شيء بثمن طبعاً . «كمان ، كمان» أى أكثر وأكثر . ولا يشبع هذا العمدة . لذلك سموه «كمانى» . كان هذا مايجرى بالنسبة لقرية نور . ولكنه هو أيضاً لم يكن يفهم أول الأمر الأمور كلها . وقد مرت سنوات وسنوات كى يتحقق له ذلك . »

الفصل الرابع

بعد رحلتى إلى «الكوم» أصبحنا صديقين . كان يزورنى ، ونشرب القهوة معاً . وكان روزاكيس يتمتم قائلاً «ألم تجد صديقاً آخر غير هذا الكلب ؟ » وذات مرة أوضحت لنور كيف تعمل «خاريكليا» . مضى يتأملها وكأنه يعاينها للشراء . دعوته للذهاب إلى الاسطبل ليرى جواداً عربياً أصيلاً ولكنه رفض ، وأخذ يسألنى عن الماكينة قلت له «انتظر ، عندما يأتى هيجلار سيجيب على أسئلتك الكثيرة . ومن الجائز أن يكلفك هذا زجاجة خمر» وأخبرته لماذا أطلقت على الماكينة اسم «خاريكليا» ، فسد أذنيه ، وقال لى «حرام ما فعلت . هذا شىء ليس له روح» .

قلت له : «اعطيتها روحى أنا» فى تلك السنوات عندما كنت تقول شيئاً كان الأخرون يتأملون ما تقول ، ويمضون يحللونه ويقلبونه فى عقولهم ، فقد كان الوقت كله ملكهم . وبعد قليل قال لى «كلامك صحيح . لو لم أعمل حساباً لكلام الناس لسميت مركبى الثالث سعاد» . وكان هذا اسم زوجته . لم يكن حتى تلك اللحظة قد أخبرنى انه متزوج . وربما كان ذلك لأننى لم اسأله . وذات ليله بعد أن أنتهيت من عملى ، خرجت لالتقط انفاسى ، ووجدته يجلس تحت شجرة التوت الكبيرة . قـال لى «انها فى كوم جهنم ، وأنى

قلق عليها . اتوجس كثيراً . انك لاتعرف كم هى طيبة» . وهكذا حكى لى قصتهما من البداية .

كان فى يوم على متن «خير» ذاهباً إلى ديروط لأن موسم القطن كان قد بدأ . لم تكن الشمس قد ظهرت من خلف الجبال بعد . وكانت مياه النوبارية تعكس ظلال الاشجار والسماء ، ويخيم السكون والظلام على الشاطىء . بدأت هامات الشجر تلوح للناظرين . غسل نور وجهه وتناول افطاره ثم مدد جسده على المركب ، وأخذ يغنى فى سعادة . كان يعرف الطريق جيداً . بعد قليل هناك جرف يأتى اليه بنات القرية ، ويأخذن الماء فى جرارهن . وكان نور يداعبهن فيضحكن ، ولكنهن لم يظهرن الآن على أى حالٍ فى هذه الساعة المبكرة من الصباح . وفجأة لمح نور فتاة فى سروالها الاصفر وهى تنظف سيدة أخرى عارية تماماً . لم يلحظا اقتراب المركب . فكر نور أن يصيح فيهما منبهاً ، ولكنه فكر أن هذا لن يكون بذى جدوى ، فليس هناك مكان يستتران به . على أن صوت شراع المركب المنساب فى السكون نبه المرأتين إلى وجود المركب . صرختا فيه قائلتين «انصرف من هنا ، يا قليل الأدب» ولكن كان من المتعذر أن ينصرف . ادار لهما ظهره فحسب ، وكأنه يقول لهما «ها أنا لا أرى» . نظر إلى الشط ، فرأى الفتاة تخلع لباسها وتلبسه للمرأة العجوز . لم يعجبه تصرف الفتاة ،

ولكنه فكر فى هذاالأمر بأناةٍ ، فأعجبه احترامها لسن المرأة العجوز . وربما كانت امها . احاط فمه بكفيه وصاح «لاتنزعجى يا صبية . عندما أعود للمرور من هنا أريد أن أقول لك شيئاً» ترى ، هل سمعته الفتاة ؟ كانت «خير» تبتعد مسرعة .

فى اليوم التالى كانت الفتاة عند الشط ومعها قلة ، اقترب نور من الشط متمهلاً ولكنه لم يوقف مركبه . قال لها : «اقتربى من المركب ، فمن الممكن أن يرانا أحد» .

ثم سألها :

– أكانت والدتك تلك السيدة العجوز ؟ .

قالت «كلا ، انها جدتى» .

– وما اسمك ؟ .

– سعاد .

كان والدها جاد الرب مزارعاً صغيراً له أولاد ذكور وبنت واحدة هى سعاد .

– وأنت هل تعرفين اسمى ؟

– كيف لا أعرفه ! . أنت بومبه . رأيتك مرات عديدة تمر من هنا . انك تغنى كثيراً .

حتى هذا كانت تعلمه . وأسعدت اجابتها نوراً .

– لماذا فعلت ذلك ؟ .

فهمت الفتاة مقصده.. ونظرت إليه خلسة :

– ما الذى فعلته ؟

– خلعت سروالك لتسترى عرى جدتك .

– وماذا فى ذلك ؟ طلبت منى هذا . وأنت ماذا كنت ستفعل لو كنت مكانى ؟

اعجبته هـذه الإجابه أيضاً . مضت ليلتان وهو يفكر فى الأمر .

– سعاد أريدك زوجة لى ، فما رأيك ؟

ضحكت الفتاة ونظرت اليه ، وهو جالس داخل المركب :

– والدى لا يحب المراكبية . إنك لا تجدهم فى منازلهم أبداً .

– وهل انغراسى فى الطين مثل الديدان أفضل ! .

حجبت سعاد وجهها ووقفت مولية اياه ظهرها . ثم انصرفت مسرعةً كالغزال .

عند الغـروب ، استعار نور حماراً ، وذهب إلى منزل جاد الرب .

قال له الرجل «كلا ابنتى الوحيدة . اريدها إلى جانبى أنت مراكبى ، اليوم هنا وغدا لا أحد يعلم أين . منذا الذى يحمى شرفها عند غيابك ؟ اخوتها ؟ كنت أود ألاَّ امانع . فأنت مجتهد وعندك مركب» . قاطعه نور مصححاً «بل مراكب . . »

«عندك مراكب ، حسناً ، ولكن عائلتك بل قريتك بأكملها لصوص».

كانت هذه إهانه كبرى . جن جنون نور . لو أمسكه بين يديه لمزقه ارباً ارباً ، ولكنه اخفض رأسه . ركب حماره ، وانصرف مقهوراً . وفـى صباح اليوم التالى ، كانت سعاد تنتظره عند الشط ، وكانت جدتها معها وتخفى وجهها . رست «خير» ودخل نور بسعاد . وفى المساء علم جاد الرب بما حدث ، فقال :

«ما حدث حدث ، فليأخذها بعيداً عن هنا لأن اخوتها سيقتلونهما ويكفينى ما حدث . وبعد ذلك خلع لبدته ، ونظر إلى السماء ، وقال ثلاث مرات «اقسم بالله العظيم لا هى ، ولا زوجها ولا ذريتهما أو أحفادهما سيطئون عتبة هذه الدار . ولو حدث وأخلفت هذا القسم فيا من تسمعونى ، ارجمونى بالحجارة ، كما ترجمون كلباً مسعوراً»

وعندما انتهى نور من سرد حكايته ، قلت له :

«أيصح ، يا بومبة أن أنزل إلى قريتك ، ولاتعرفنى بزوجتك ؟ السنا أصدقاء ؟ »

قال لى : «كلا ، مافعلت كان سليماً . أنتم الخواجات لكم سلوك آخر فيما بينكم . يكاد التفكير فيه يورثنى الجنون احياناً . ناهيك عن كلام نساء القرية . أنت لاتعرفهن . بل ويخيل لى أن ما قلته الآن لكثير ولكننى احسست أى نوع من الناس أنت ، عندما قصصت لى عن والدتك ، فأنا لى أيضاً والدة هناك» .

الفصل الخامس

وأكمل بوليڤيو حديثة قائلاً :

- «الآن يجب أن أقول لك عن عائلة الكمانى . عندما اتيت إلى هنا فى الثلاثينات كان «أبو رزق» كبير العائلة قد توفى ، وكان عمدة البلد عمر الثعلب كما كنا نسميه ، وتعرفت إلى عزيز الذى كان نائباً فـى البرلمان ، وسليم شيخ الخفر وشيخ البلد فى آن واحد ، كما تعرفت إلى حسن وحسنين المحاميين ، وبقية افراد العائلة ، وكانوا قطيعاً من الثعالب . ماكان بالامكان أن تروق لك فعالهم ، ولكن هل تعلم من أى أصل ينحدرون ؟ »

قلت «كان سليم رجلاً طيباً»

- «أعلم إنك كنت ميالاً إلى سليم . كنت اراه فى مكتبك كثيراً وكنتما تشربان القهوة وتتحدثان . . . ولكن من الذى يستطيع أن يقول أنه كان إنساناً طيباً . كان يعطف على الفلاحين حقاً ، ولكنه كان هو من نفذ أبشع الجرائم .

كان يخاف اخوته لأنه كان من أمٍ أخرى غير أمهم ، كانت خادمة عند أبو رزق . ولذلك لم ينل حظاً من التعليم ، وعينوه شيخاً للخفراء . وبسبب درايته بالناس ، سرعان ما كان يعلم عن كل مكيدة تدبر . وفى الليلة ذاتها كان خفراؤه ينقضون على مدبريها

ويجهزون عليهم ، وما كان بامكان لص أن يبقى فى ديروط . تارة ترى الدموع تنهمر من عينيه ، وتارة ينقلب وحشاً ضارياً لامكان للرحمة فى قلبه . اخواته يأمرون ، وهو يطيع اخوته . وكان المحاميان والصغير الآخر أخوته ايضا من زوجة أبو رزق الثالثة ، وكانوا يتظاهرون باحترامه أمام الناس ذراً للرماد فى العيون ، ولكنهم عندما كانوا يجتمعون فى منزل العمدة ، كان سليم لايفتح فمه بكلمة ، وإنما يتلقى الأوامر فحسب ، ويجيب قائلا «حاضر» «حالاً» . وقد مات بالربو . هل علمت بذلك ؟ »

قلت : «كلا ! يا لخسارة هذا الرجل»

كنت أعنى ما أقول . وما كان يقوله بوليفيو عنه كنت أعلمه أو أتوقع أن يقوله عنه ، ولكننى فـى الحقيقة تعرفت على سليم آخر . ما مصير الإنسان ؟ كيف تخطط له الظـروف ، أين ترمى به المقادير ؟

كان سليم ينقل بالجمال قطن روزاكيس ، وكان يأتى إلى فى المكتب للمحاسبة . كانت ذاكرته قوية ، وكلمته من ذهب . لم يكن يخطـىء قط . كنا ننتهى من الحسابات ، وبعد ذلك نجلس نتحادث . كان متعطشاً للعلم ، وكان يقول لى :

«دعـك مما يقوله الفقاء ، خبرنى بما تقوله الكتب التى تقرأها . كيف يمكن أإن تكون الأرض كروية ؟ من الذى خلقنا ؟ من

الذى سيحاسبنا بعد الموت ؟ »

كان يحب الاهالى ويعشق قصص الجمالين ، ويختزنها فى ذاكرته . كان أمياً لم يتلق تعليماً بينما وصل اشقاؤه إلى البرلمان . يلقون خطباً ، ويقرأون الصحف . كل شىء ورق فى ورق . كانت لسليم روح يقظة وسامية . ذات مرة سألنى وهو يشير إلى زهرة الجنفليا الحمراء «ماذا تسمون هذه ؟ »

قلت له على اسمها ، فقال لى «الشعب عندنا يطلق عليها دم الغزال . أليس هذا الاسم أجمل ؟ »

فى عام ١٩٣٥ خفض المستبد صدقى باشا الضرائب على الأرض قليلاً ، فقلت لسليم «هذا حسن» فقال معلقاً فى سخرية «قالوا للكفيف أبشر ، الشموع انخفض ثمنها» . وذات يوم حكى لى قصة ثم عند الانتهاء منها نظر إلى كى يرى مدى تأثرى بها . قال : «حتى تشغل البدويات اطفالهن الصغار يأخذن حبات الذرة ويخفينها فى الرمال فيلهو الصغار بالبحث عن الحبات واخراجها من الرمال ثم يأكلونها وعندما يفرغ الصغار من الحبات كلها ، فلا يعثرون بعد ذلك على شىء منها ، يعاودون البكاء» واننى اذ اتذكر هـذه القصة الآن أجد أنها لاتعنى بالنسبة لى شيئاً ، ولكنها آنذاك ، حينما كان يحكيها لى سليم كانت تعنى الكثير ، اذ كان بصرى يقع على خيام البدو فى الصحراء المترامية الأطراف من

حولنا ، وكان ثمة طفل يلهو بالنبش فى الرمال ولعله أحس بمرارة ذراتها فى حلقه .

كان السكون عميقاً . وقطع بوليفيو ذكرياتى قائلاً :

«أبو رزق لم يكن من ديروط بل كان من المنيا . وكان من اتباع محمد سلطان رئيس مجلس الشيوخ الذى خان الزعيم أحمد عرابى . وقد قال عرابى عن ذلك «لم نهزم من أسطول سيمور ولا من جيش اللورد أولسلاى بل انهزمنا من فرسان سان جورج» وكان يعنى بذلك الجنيهات الذهبية التى قبضها سلطان ثمناً لخيانته فقد كان مرسوماً عليها صورة سان جورج . وفى عام ١٨٨٣ كان الانجليز قد احكموا احتلالهم لمصر ووصلوا إلى حدود السودان . وقد سلّم الخائن لرجاله مقاليد الأمور حتى يتأكد من إحكام قبضته على البلاد . وهكذا أرسل أبو رزق إلى ديروط ، ولم يكن له فيها شبر من الأرض . وكان كبير الأعيان هناك عثمان باشا ، الذى لم ينحز لأحمد عرابى ، ولا للخديوى توفيق أى للانجليز . وقد كان الخديوى اسماعيل قد خصه بالأرض التى يمتلكها عام ١٨٦٥ ولذلك كانت سياسته مغايرة لسياسة الخديوى توفيق . وكان إلى الاتراك والفرنسيين أميل ، وإن كان لم يفصح عن موقفه قط . والآن تخيل اننا واقفان على الكوبرى وقد أولينا ظهرينا إلى الشمال . تحت اقدامنا تجرى ترعة الإبراهيمية الكبرى

التى تأتى من أسيوط وتمضى ذاهبةً إلى دير مواس وملوى والمنيا ثم القاهرة ! وبمحاذاه هذه الترعة ناحية الشرق سوف تجد السكة الحديدية وسوف ترى المحطة والمقاهى ، والبنك ، والأزقة ، والمحلات الصغيرة ، والمسجد ومقر المأمور وبعد ذلك خمسة أميال من الأرض الزراعية حتى نصل إلى النيل . والأرض من هنا مقسمة إلى قطع صغيرة لزراع صغار مثل جاد الرب . والحدود الجنوبية لديروط هى النوبارية ، القناة التى يعمل عليها بومبة ، ويمتد الكوبرى شرقاً . أما فى الغرب فستجد الطريق القادم من أسيوط موازياً للشط الأيمن للابراهيمية التى قبل أن تصل إلى المكان الذى نقف عليه هنا يشقها سد وتتفرع منها ترعة الدلجاوى ، الفرع الغربى للنوبارية وتصل مياهه إلى الدير ويلفظ انفاسه فى الصحراء الليبية . وقد كانت كل هذه الأرض فى يد الاعيان الذين كان كبيرهم عثمان باشا . وكانت أرضه تبدأ من الطريق الترابى وتصل إلى أرض الدير . وتمتد حدودها الشمالية إلى الدلجاوى أما جنوباً فلا أذكر إلى أى مدى تمتد ، وإن كانت توغل بعيداً على أى حال . وكانت الأرض خصبة ، كثيرة الخيرات . ولم تكن تقل مساحة ما تملكه الأسرة عن ثلاثة آلاف فدان ، بما عليها من انفار وفلاحيين ، وما لا يقل عن عشرين قرية صغيرة .

وصل أبو رزق واختار قطعة أرضٍ فى جنوبى المدينة بعد

النوبارية . وكانت هذه الأرض تلاً تكون من تراكم الطين المستخرج من حفر القنوات وقد كانت من املاك الرى .

وضع أبو رزق حراساً فى كل مكان حتى على أرض الباشا . وجمع الانفار ، وتحت ضرب السياط والعنف سووا أرض التل ، ولما ذهب بعض هؤلاء الأنفار إلى الباشا يشتكون له . طردهم ، فلم يكن يعرف بهد من أين ستهب الرياح .

وبنى أبو رزق داراً للعمدية ، ومنزلين آخرين . وحوط المنطقة كلها بسور . لم يعترض أحد بشىء فقال لنفسه «عمل سهل هذا» . وكان هناك تل آخر تكون من طين حفر القنوات أيضاً ، ولكن فى الجهة الغربية على الشط الآخر ، عند تلاقى الطريق الترابى بالدلجاوى ، أى أنه كان على حدود أرض الباشا ، الذى كان طوال هذه الأعوام يحترم املاك الحكومة . وعندما أحس الباشا أن أبا رزق سيستولى على التل تحت سمعه وبصره جن جنونه . ذهب إلى المنيا يقابل محمد سلطان ، وقدم له فروض الطاعة . دعى أبو رزق للحضور ، فأمر رجاله أن يسارعوا بالانتهاء من عملهم ، وذهب إلى القاهرة وتحدث مع اللورد كرومر . ثم عاد بعد ذلك إلى المنيا ، حيث مكث ثلاثة أيام فى مناقشات تلو مناقشات . وكان محمد سلطان يعلم مدى قوة الباشا . فقد كان بامكانه أن يستنفر الفين من اتباعه ومائه بندقية مدفونة فى الأرض وثلاثين فارسا ، ناهيك

عن علاقاته الطيبة مع بدو الصحراء الليبية . أما أبو رزق فكان لا يملك سوى خمسة عشر بندقية ، ومؤازرة الجيش الانجليزى الذى كان بعيداً جداً عن الموقع على أى حال . فاتفق الطرفان على أن تكون قطعة أرض النوبارية ملكاً حلالاً لابى رزق . اما قطعة الدلجاوى فستظل تحت النزاع لمدة عشرين سنة ، وبعد ذلك سوف نرى . واقيمت الدعوى اللازمة حتى يضمنا الاتمتد يد أحد إليها وقد حل هذا الاتفاق مشاكل أخرى ايضاً . لن يكون لأبى رزق علاقة بالزراعة فلا يؤجر أراضى للمزارعين وتظل الزراعة من اختصاص الباشا وحده . وارتاح الباشا لذلك لأنه كان يرى الخطر عليه قادماً من هذا الباب . وسوف تكون التجارة فى المدينة من اختصـاص أبى رزق ، أى البيع والشراء ، والنقل ، وإيجار المنازل ، والاتاوات التى سيفرضها على أصحاب المحلات والحـرف الصغيرة . وقد سعد أبو رزق بذلك . وتخيل أى نهر من الذهب سيجرى بين يديه . وعاد الباشا وأبو رزق إلى ديروط . لم يصبحا صديقين ، ولكن عندما كانا يتقبالان كانا يتبادلان التحية بحرارة وظلا محتفظين بالاتفاق حتى وفـاة سلطان باشاً تجنباً لأى مشاكل . وعندما ظهر روزاكيس فى ديروط وطلب شراء قطعة أرض على الطريق أعطى القطعة التى تطل على الدلجاوى . حدث هذا عام ١٩٠٠ ومضت القضية تتأجل سنة بعد الأخرى

أولاد أبى رزق أو كمانى كما صاروا يسمونه نظراً لجشعه وتتطلبه المزيد والمزيد من المكاسب والاسلاب . وعندما كان يسأل انصار الباشا لماذا يكون العمدة من أولاد كمانى ؟ ومن هو الأكثر غنى ، الباشا أم رزق ؟ كان الباشا يسكتهم قائلاً لهم «هذه مشيئة الانجليز»

«ولماذا لايريدون أن يكون العمدة من بيتنا نحن ؟ نحن العائلة العريقة ، عائلة أصحاب الجاة . اليس بامكاننا أن نفعل ما يفعله افراد العائلة الأخرى» ؟ وهكذا بدء النزاع والخصام .

وذات ليلة أمـر زين أكبر أولاد الباشا بقتل خفير على الكوبرى . ولم يمر وقت طويل وقتل واحد من عائلة الباشا . زين تحدى عمر أكبر أبناء الكمانى وتوعـد بقتله . إجتمعت عائلة كمانى بدار العمدة . . وتعالى الصياح والشتائم والتهديدات ، ولكن لا أحد يريد أن يذهب ليواجه زين . نهض سليم وأمسك ببندقية والده ومضى . مر من على الكوبرى . اراد بعض الخفراء أن يذهبوا معه ولكنه طردهم . عرج شمالاً إلى الطريق ، واتجه إلى منزل الباشا . وعند محلج روزاكيس ، وكان تحت التشييد آنذاك ، وبجوار الشط حيث تنمو شجرة لبخ كبيرة يقال أن عمرها يناهز مائة سنة ، كان زين يربض متربصاً .

وعندما رأى قادماً يمسك فى يده سلاحاً ، اطلق من بندقيته

نحوه فى الحال رصاصة ، لكنها لم تصب هدفها ولم يتوقف سليم ومضى يتقدم نحو زين ، الذى حاول أن يعمر سلاحه مرة ثانية . ثم تملكه الخوف فحاول أن يهرب ، ولكن قدميه لم تساعداه على ذلك اذ كان يرتجف .

وصل سليم اليه وامسك ببندقيته وهوى بها على وجهه فهشم فكيه . وقال الخفراء الذين اقتفوا أثر سليم انهم سمعوا طلقتين ثم خيم السكون . فحسبوا أن سليماً قتل ، فأسرعوا إلى هناك وفجأة سمعوا عواء كلب يتألم . كان هذا صوت زين . لهذا صاروا يطلقون عليه «الكلب» . ولكن شهرته كانت «مهشم الفكين» ، أو «المجنون» واضحى ينتابه الجنون والهياج عندما يسمع اسم «كمان» . ولكى يبعده الباشا عن الناس بنى له قصرا على مشارف الصحراء وزوجه بفتاة حسناء تركية الأصل وقال له «من الآن ستلزم هذا المكان ولن تأتى إلى ديروط ابداً» .

وبعد موت الباشا خلفه ابنه الثانى كمال بك ، الذى تعرفت عليه ، وعندما مات أبو رزق تولى الأمور من بعده عمر الثعلب .

الفصل السادس

فى العام الأول من الزواج ، انجبت سعاد طفلة ، وفى العام الثانى انجبت طفلة أخرى لكنها توفيت فور ولادتها . كانت سعاد تلعن «كوم جهنم» وتقول : «أرض ملعونة لاطين فيها ولا ماء . كيف تنبت إذن هناك بذرة ؟ »

وكانت تتذكر قريتها بجوار النوبارية . الأشجار ، والبرسيم الذى كانت تطعم به بقرتهم . كانت سعاد تذبل كالوردة . وقليلا ما كان يذهب نور إلى القرية ليراها ، كان منشغلاً بأعماله ، وكانت تسأله «أين ترقد وتنام ؟ » . وكان يقول لها «داخل المركب» ولكن من الذى يجزم لها بذلك . ثم ترفق بها الله ، فرزقها ابناً . وما إن وضعت طفلها حتى ارسلت فتى من القرية ذهب سابحا ليبلغ نوراً الذى جاء على عجل فى قارب صغير ذى مجدافين مشرق الوجه مثل الشمس ، مرتدياً أفضل ماعنده من ثياب ، وصاح بأهل القرية «انهضوا ايها الكسالى ، وافرغوا ما بالقارب»

كان قد جلب معه خيرات من كل نوع ؛ ذبائح ، أرز ، سكر ، شربات . أكل أهل القرية ، وحمدوا له . وكانت سعاد تحمل طفلها فخوراً به ، وقد نسيت كل احزانها . وقال نور لأمه «ألم أقل لك أنها طيبة ؟ » وأجابت أمه «وأنا قلت لك هذا . وهى تعتنى بى»

وكانت هناك جارة قالت لنور «ستعود إلى ديروط بقاربك ، فهل تأخذنى معك ؟ على نذر أريد أن أفى به هناك» وقال نور «ماذا ؟ تأتين معى ؟ وكيف ستعودين ؟ »

«لاتقلق . سأجد وسيلة لذلك» كانت سعاد قد أعطتها مالاً يكفى لتأجير مركب كبير ، وقد أرسلتها إلى والدها دون علم أحد . «بلغى والدى تحياتى ، وبلغيه ايضا أن ابنته الوحيدة قد انجبت له حفيداً . وتريد أن تأتى بولدها ليباركه» .

مرت أربعة أيام والجارة لم تعد ، فانتاب سعاد القلق وأخيراً ظهرت . وما أن وطئت قدميها القرية حتى اطلقت العويل والصراخ . احتشدت حولها نساء القرية . وقالت شيئاً ، فشرعن يشددن شعرهن ، ويشرن باصابعهم ناحية النوبارية ، وينهلن بالسباب واللعنات ويصحن «يا أيها الرجل العجوز ، تقطع يدك ، يا جاد الرب ، يا ايها العجوز ، القذر ، الملطخ بالاوحال ، يا جاد الرب ، يبست يداك ! » انقضت عليهن سعاد لتمزقهن ، فقالت جارتها «اسمعن عن اسرتها وانظرن اليها . خيراً تفعل بهم ، فيوسعونك ضرباً . ولكنك سوف ترين . سوف يغسل اشقائى بالدم هذه الاهانة التى لحقت بى» غضبت سعاد ، وجن جنونها . كان شقيق نور موجوداً بالقرية ، فذهبت سعاد اليه وروت له ماحدث . «افعل شيئاً . ارسل إلى نور رسالة عاجلة . إنهم

سيقتلون والدى» امسك شقيق نور بعصا ليضربها ولكنه تركها .
خاف من نور .

وقال لها :

«أنت السبب . كيف تفعلين هذا وبدون علم زوجك ؟ »

بعد أيام قليلة وصل نور . كانت تشوب وجهه الغيوم . اسرعت سعاد اليه ترحب به .

رفع يده وهوى بها على وجهها . وركلها ركلة ارتمت بسببها علـى الأرض ، أمام نساء القرية . بكت وصرخت «نور ، قرة عيونى . أنت تفعل بسعاد هذا ؟ »

نبشت الأرض باظافرها المخضبة بالحناء ، باحثة عن طين تلطخ به وجهها وكأنها فى حزن كبير .

وصلت والدة نور وربتت على ظهرها بشدة وكان نور ينظر اليها وقد استبدت به سورة الغضب . قــالت لها والدة نور «انهضى ، وقبلى يد سيدك»

امعنت سعاد فى البكاء ، فقالت العجوز «سأقبل أنا يده» ولم ينبس نور بكلمة . رفعت زوجته وجهها وقد تلطخ وجهها بالتراب ، واختلست النظر اليه . ثم نهضت وامسكت يده اليمنى وقبلتها فأطلقت نساء الكوم زغاريد الفرح . وقالت أحدهن متشفية :

«اضربها مرة ثانية لكى تتأدب»

تركهم نور وذهب إلى منزله . انقضى اليوم ، وزحف الظلام كانت ابنة نور نائمة ، وابنه الرضيع فى حجر والدته يبكى ، وهى تحاول تهدأته كى ينام . أما نور فظل ممدداً على فراشه يفكر . ثم نام الرضيع .

قال نور :

«أما كان يكفينى مالدى من هموم حتى تضيفى اليها أنت بدورك مشاكل جديدة . ماذا كنت تنتظرين من أبيك ؟ »

قالت سعاد :

«ليس بأمكانى أن أنسى أبى وهو يعود مبتسماً من الأرض وأنا أرحب فرحة به » .

«وماذا بامكانه أن يفعل ؟ حتى لو اراد فليس بأمكانه شىء . لقد نطق باليمين . وأنا نفسى لو كنت مكانه لفعلت مثله» .

«ولكن هل يرضى الله سبحانه وتعالى بهذا الوضع ؟ »

لم يجب نور . ثم اردف بعد قليل يقول :

«ربنا كبير . وهو يحاسب على كل شىء »

قالت سعاد :

«لماذا تقول ذلك ؟ فيما تفكر ؟ »

«كنت أقول هذا عن عائلة كمانى . لم يكن فى ذهنى والدك العجوز»

– تفكر فى نفسك وفى مراكبك ، بدلاً من أن تفكر كيف نرحل من هنا . انهم يناصبوننى العداء ، جميعاً ، هنا . أقسم لك بذلك .

ازداد نور غضبا فنهض وخرج من المنزل تحت جنح الظلام . من بعيد كانت ترتعش المصابيح على كوبرى ديروط . مع من يتحدث اذن ، وإلى مشورة من يستمع ؟ سمع ضحكات تفد مما وراء القرية . صعد التل . اطل منه فرأى مقهى القزم ، حيث جلست جماعة تدخن ، وتثرثر حول نارٍ موقدة . حسدهم نور على خلو البال وعلى الألفة ، ولكنه قال لنفسه ، لو ذهبت لجلبت على نفسى المتاعب . ولن استطيع بعد ذلك أن أفلت . عاد ادراجه إلى بيته . وفى الظلام جلس إلى جوار زوجته . وقال لها :

– انى اجهز مركبا جديداً هذه الآونة . وذات يوم ذهبت إلى الورشة فرأيت سليماً هناك يأمر وينهى الصناع .

قلت له :

– ماذا تفعل هنا ؟ لا أريد احداً أن يعطى الأوامر لصناع مركبى .

قال لى :

– أنت مخطىء . ليست هذه مركبك . أنها مركبنا .

– ماذا تعنى ؟ »

– نصفها ملكى . وربعها ملك للعمدة ، والربع الآخر لك » .

وهذا الذى قال له سليم كان قد تقرر فى دار العمدة .

قلت له :

– لماذا هذا ؟ وهل تأخرت يوماً عن سداد الضريبة أو أى شىء؟

– هذا لايكفى . مراكبك تضر بأعمالى وبما انقله من بضائع بجمالى .

– ولماذا لاتتزلون بدوركم مراكب إلى الترع . وهل سامنعكم عن ذلك ؟

قال سليم بحزم :

– ما قلت هو ما سيتم .

وقالت سعاد :

– ياللضباع ، يمتصون دماء الناس .

– وهل بقى فى عروق الناس دماء ؟ قفص البلح الواحد يطرح فى السوق ، فيأخذون لأنفسهم منه النصف .

– وهل يرضى ربنا هذا ؟

– هذا ماكنت أقول . وعلى أى حال فربنا كبير .

أخذته فى خضنها ، ووضعت رأسها على كتفه .

– وماذا ستفعل الآن ؟

– لا أعرف . سأذهب إلى الباشا .

– اذهب . كان والدى يقول : اذهب و ولكن ابعد عن طريق القتل .

الفصل السابع

كان روزاكيس يحتسى القهوة مرة فى الاسبوع مع الباشا فى منزله . واعنى بالباشا كمال بك الذى لم يمنحه الانجليز «الباشوية» وكان القصر يتعلل فى ذلك بأنه لازال شاباً . ويبدو أنهم استمعوا إلى عائلة الكمانى ، أو أنها وشت به لدى الانجليز . وكان الباشا وفدياً ، ولكنه لم يكن يعلن ذلك . كما أصبح روزاكيس شخصية مهمة وكانوا يعتبرونه «عادلاً» و «ذكيا» . قام بشراء «خريكليا» للطاحونة أول الأمر . ثم شيد المحلج قبل أى شخص آخر . وأصبح هيجلار الذى كان ينعته روزاكيس بالحلوف ، يأتى اليه جالباً بعض الصفقات الصغيرة . وكان الباشا يرحب بروزاكيس حتى لايصبح جاره هذا صديقاً لعائلة الكمانى . وكان يلاطفه ويستشيره عن أحوال البورصة .

وكانا يتحدثان أيضاً فى أمور السياسة والأعمال والتجارة . وكان روزاكيس لاينسى ما فعل الإنجليز بوطنه كريت ، فيتحدث عنهم بغيظ . كما كان الباشا يتحدث عن احتلالهم لمصر .

ثم بدأت حرب البلقان فلم يعد الباشا ينبس بكلمة عن الاتراك وكذلك روزاكيس . أما قبل ذلك فكانا متفقين على أن حركة التحديث التركية قد تثمر شيئاً جيداً . أما الآن فلم يصبح لتركيا

فى احاديثهما وجود . وحرص كل منهما على الا يجرح الآخر .

كان روزاكيس حاضراً بمنزل الباشا عندما جاء نور ، يشكو له عائلة الكمانى التى كانت تريد أن تسرق منه مركبه الجديد . قال روزاكيس بصوت عالٍ سمعه الموجودون كلهم :

– نور هذا رجل نشيط .

وكان قد لمحه واقفاً منكس الرأس منذ فترة بالخارج ينتظر الأذن له بالدخول . أبعد الباشا غليونه عن شفتيه ، وقال له :

– أنت يا مراكبى ما الذى أتى بك الى هنا ؟ .

مسح نور قدميه . وفى تواضع دخل غرفة المكتب .

وعرض مشكلته . صاح الباشا فى وجهه بأعلى صوت لكى يسمعه كل شخص موجود عند الباب :

– أعتقد أنك مجنون . أم انك تريد أن تغير أوضاع العالم . أتيت إلى لتحكى عن المراكب . أذهب إلى العمدة ، هيا .

كانت هذه هى المقدمة . انتظر نور ولم ينصرف . وتدخل روزاكيس وقال :

– مهما كان الأمر يا باشا ، فإن هناك عدلاً وبهذه الطريقة فإن حق الناس . . .

قاطعه الباشا قائلاً :

– الناس . . الناس . . وهل طلب الناس منك أنت شيئاً ؟

– منى أنا ؟ هذا لم يحدث قط ، ولكن أنا شيء آخر ، وهذا موضوع آخر .

كان يريد أن يقول أن القوانين تحمي أمثاله . كان معفى من الضرائب الحكومية . ولكن هذه أمور حساسة ليس هذا هو الوقت المناسب للخوض فيها ، فمن ناحية سوف كان يخدش اعتبار الباشا لو تحدث فيها ، ومن ناحية أخرى كان المراكبي يستمع . وهل من المصلحة أن تفتح عيون امثاله على أمور مثل هذه ؟

– أنت ترى . أنني لو استجبت لرغبة هذا الصعلوك سوف أمس النظام بالتغيير . سوف ترسل عائلة كماني صرافاً من طرفها إلى محلجك وتحصل منك خراجاً عن كل بالة قطن تخرج من محلجك . وماذا بعد ؟

تمتم روزاكيس لنفسه قائلاً «حسنا ، حسناً . اظهروا على حقيقتكم» فعاد روزاكيس يلعب على وتر العدالة ، وقال :

– أهم شيء يا باشا إنك لست ظالما . وأنى أوافقك على أنه يجب مراعاة النظام في كل شيء . ولكن اليس لعائلة كماني من يلزمهم باتباع الحدود ؟

كان الباشا راضياً عن معاملات عائلة كماني لأنها كانت تنتقص من سلطان المأمور الذى تعينه القاهرة . وسأل :

– مثل من ؟

قال روزاكيس موضحاً :

- الأنجليز . .

فهم الباشا ماذا يريد روزاكيس أن يقول وأجاب :

- الأنجليز ؟ انهم هم الذين يرتبون كل هذا . لماذا لايشقون الطرق ؟ لماذا يلغون تراخيص النقل بالمراكب ؟ ذلك كله كي تكسب السكك الحديدية . أو بعبارة أخرى ، ان تكسب الدولة . وأين يذهب الايراد ؟ إلى جيوب أصحاب البنوك لسداد «الديون» وإلى بطون ذوى السراويل الحمر الذين ربضوا على اعناقنا . مفتش هنا . ومفتش هناك ، فلا يستطيع أحد أن يلتقط انفاسه من هذا أومن ذاك .

وكان نور يقف صامتا يسمع ، وقال روزاكيس ممسكاً بالعصا من الوسط :

- ليست الأمور كلها على هذا النحو . عندما تنخفض أجور النقل تنخفض أسعار القطن ومنذا الذى يشتريه ؟ انجلترا . ولماذا تشتريه بسعر مرتفع ، أهم أغبياء ، أولئك الانجليز ؟

ضحك ضحكة مفتعلة وأردف يقول :

- وهل سيهتم الباشا أو الانجليز بالملاليم ؟ كما أن أجور النقل يخصم من السعر . والأسعار تحدد فى ليفربول ، أى هم الذين يحددون تلك الأجور أيضاً .

– هذا أمر مؤكد ، ولكن البورصة . . دعنا من الحديث فى هذه الأمور . . هذه شئون اقتصادية عليا ، لن نحسمها اليوم . والآن ماذا سيتم مع هذا الرجل ؟

– وهل أنا الذى سأقول له ماذا يفعل ؟ اذا كان رجلاً حقا ، سيتصرف كما يتصرف الرجال .

فهم نور . «اقتل واحداً أو اثنين من آل كمانى ، وأنا أرسلك إلى العزبة مع زين» .

قال لنفسه «لن تنال ذلك منى» ولم يرفع رأسه ، وانتظر عله يسمع شيئاً آخر .

وقال الباشا :

– ليذهب إلى المفتش الانجليزى . أنه صديق ، ولكن فليقل أنه قادم من طرفهم . كى يعرفوا نذالة رجالهم .

فهم نور «إذهب أنت ، كى أوقع أنا بك . هذا ما لن أمكنك منه» .

انحنى ، وانصرف ، وصل الخبر إلى ديروط أمسك به أعوان العمدة . ««ما الذى كنت تريد من الباشا ؟ » «هو الذى استدعانى يريدنى أن أنقل له محصول القطن» «أنت كذاب ، يتولى البنك نقل القطن له» «قل ماذا كنت تريد منه ؟ » لزم نور الصمت «وماذا عن المركب ؟ » وقال نور «لاشىء» «تعنى هل سنتم الشركة ؟ » هز نور

رأسه وقال «كلا»

وعندما ذهب إلى أسيوط لاستخراج الرخصة ، قالوا له سنفحص أيضاً المركبين الآخرين ، وحجزوهما ، وقالوا له «مستر كوكسن يريدك فى كلمتين»

كان كوكسن مفتش الرى الذى تتبعه كل الترع والقنوات صديقاً للباشا ، يعمل دائماً لتوفير الرى لأرضه . أما عن الفلاح ، فإنه لو رفع رأسه بأدنى معارضة كان يقطع الماء عنه ، ويوقع به الخراب . كان كوكسن هذا طاغية وسكيراً . كان هيجلار سكيراً بدوره ولكنه كان ظريفاً . أما كوكسن فكان اذا سكر يبيد القرى . كان يغرقها بالمياه ، أو يتركها عطشى زمناً طويلاً . لم يكن يعمل لأحدٍ حساباً . وكان قبيح الوجه ، ضخم الأنف ، وأسنانه نخر فيها السوس . وكان الفلاحون يطلقون عليه «أبو سنة» لأن أسنانه الامامية الثلاثة كانت مغطاة بطبقة من الذهب . وكانوا يخيفون به الأولاد الصغار . وكانت له عادة غريبة . كان يغير حذاءه أينما كان يحلو له ذلك . عادة انجليزية هذه . وكان يتبعه خادم يحمل لذلك الغرض حقيبة بها الاحذية . كان كوكسن يتخذ مكتباً له فى مسكنه الذى كان قصراً جميلاً على الضفة الأخرى من النيل عند أسيوط .

المفتش يريده . دق قلبه بعنف .

وما أن دخل نور المكتب ، وقف الانجليزى ، وهجم عليه يوسعه ضرباً . رفع نور يديه أمام وجهه ليحتمى من الضربات المنهالة عليه ، فأمسك اثنان من الحراس السودانيين بيديه . وتناول كوكسن مقصاً من على مكتبه ، وقص به شارب نور ، ثم القى به على الأرض ، وداسه بقدميه . وبعد ذلك القوا بنور خارجا ، فهوى متدحرجاً على درجات السلم . جرح وجهه وسالت دماؤه . وظل مكوماً فى مكانه ، وبعد قليل انتصب واقفاً على قدميه ، وذهب إلى النهر حيث اغتسل ، ووضع طيناً على موضع جراحه ، ثم لف وجهه بالكوفية ، وما عاد يبين من وجهه سوى العينين . كان ثمة ما يؤلمه ، ولكنها لم تكن جراحه هى التى تؤلمه ، بل مرارة الاهانة . جلس عند النهر على الضفة الشرقية التى بدت معالمها واضحة كل الوضوح امامه . كانت بلدته الكوم على بعد ستين كيلو متراً من تلك الضفة . أسند رأسه إلى ركبتيه وانخرط فى البكاء .

الفصل الثامن

مر على تلك الأحداث شهر . فى سبتمبر يبدأ موسم حلج الاقطان . ولم يكن للاجازات فى هذا الشهر محل . وذات يوم قلت لنفسى «وما المانع ؟ سأخرج لأروح عن نفسى قليلاً» وذهبت إلى مقهى المحطة . وفى العودة خطر ببالى «ان النوبارية على بعد خطوتين ، فلأذهب لأعرف سبب اختفاء نور» وعندما وصلت إلى هناك ، رأيت من ينقلون «خير» من مرساها ولما سألت شقيق نور عما يحدث أجابنى بأنهم باعوا المركب . ولما سألت عن نور أجابنى قائلا :

– أنه يعمل بالتجارة .

– نور يعمل فى التجارة ؟ وفيما يتاجر ؟

– سنرى .

– وأنتم ؟

– سنرى .

ودخلت مكتب روزاكيس ذات يوم ، فكان هيجلار يتحدث مع أحد التجار ، يلبس قفطاناً . وقد أولانى ظهـــره ، لكننى تعرفت عليه ، وهتفت :

– غير معقول ! نور ؟

التفت إلى في هدوء . هل أنا مخطىء ؟ كلا ، بل هو نور ، ولكنه حلق شاربه . رد التحية بلهجة جافة ، واكمل حديثه مع الآخرين . ضايقنى هذا التجاهل منه . استأذنت وانسحبت منصرفاً .

بعد قليل ، جاءنى هيجلار ، قائلاً :

– هل تعرف نور الدين هذا ؟ هل هو رجل أمين ؟

قلت له :

– ٢٤ قيراطاً . لماذا ؟

قال

– يريد أن يشارك سيدك ، وإن ازودهما بزيوت آلالات .

قلت :

– الذى اعرفه أنه رجل لاغبار عليه .

خرج روزاكيس بصحبة نور من المكتب .

قلت :

– سوف ترى ، سيأخذه ليريه «خاريكليا»

ولكنهما ذهبا إلى الاسطبل ، وأخرجا الحصان من الحظيرة وراحا يبديان أعجابهما به والحق يقال إن الفرس شبٌ عن الطوق وأصبح حيواناً رشيقاً . وراحا يبحثان عن مكان مناسب لاستخدامه مخزناً ثم جهزا العقود ، وكتب هيجلار السويسرى إلى

الشركة ، وأنتظر رداً . جاء نور إلى المكان عدة مرات . واقتصر على مخاطبتي بسؤال جاف «كيف حالك يا أسطى ؟ » ثم ينصرف إلى الحديث بعد ذلك مع روزاكيس والتعامل معه . وكان يرى الحصان أكثر مما كان يراني وقد أضحيا صديقين . كان يأتيه بقطع السكر ويطعمه بها . وكنت أقول لنفسي «عالم غريب حقاً . أصبح نور تاجراً ، ولم نعد من مستواه» ولكن ذات يوم أفلتت منه كلمة اتضح لي منها كم كنت مخطئاً فيما أعتقدت . ذات مرة تقدم الوقت ونزل عليه الليل وهو لازال عندنا . ولم يكن بامكانه أن يجري يجتاز الجسور كي يجد في ديروط خاناً يقضي به الليل .

فأعد له روزاكيس فراشاً من زكائب الخيش في حجرة بالطاحونة القديمة كناقد اعددناها مخزنا لمخلفات الحديد .

قال له روزاكيس مداعباً ، وهو يهم باغلاق باب الغرفة عليه بالمفتاح :

– انك بذلك ستتولى حراسة هذه الأشياء .

وقلت له ، وكأن شيئاً لم يحدث بيننا :

– ستأكلك البراغيث .

ضحك نور . ثم قال لي متنهداً :

– ها هي نفس أخرى تهتم بي اذن . أنسيت يا أسطى بوليفيو أين كنت أنام طوال السنين الماضية ؟ على ظهر «خير» .

هناك تجد البراغيت حقاً .

وذات ليلة سهرنا معاً ، لأن هيجلار كان سيأخذ قطار العاشرة مساءً إلى أسيوط . أحضر روزاكيس زجاجة خمر من دولابه . وازاء شتائم السويسرى وسبابه راح روزاكيس يلاطفه ويطيب خاطره ، ولكن السويسرى تجاوز كل الحدود ونعت روزاكيس بالخنزير . وبعد قليل حضر نور مرتدياً أفضل ما عنده من ثيابٍ . عمامــة حريرية ، وقفطانا أسود ، وخفا أصفر . القى علينا التحية . ولم أغادر المجلس مادام هيجلار كان باقياً هناك . وأخرج نور من صدره كيساً مليئاً بالجنيهات ، وأعطاه لروزاكيس ، الذى أخذ قطعة من الورق المقوى ، وكتب عليها اسم نور الدين بومبة ، وربطها على الكيس ، ووضعه فى الخزانة ، كان يفعل هذا مع الجميع . لم يكن يحصى النقود ولايعطى ايصالاً بها ، وكان يحتفظ بها مهما طال الزمن . ولم يشك أحد من ضياع ماله قط . وقال لى روزاكيس ذات مرة «هل تفهم ؟ الملاليم التى آخذها منهم أكون مديناً لهم بها . وعندما يموت أحدهم اسلم الامانة إلى أصحابها» ولم يقل نور من أين أتى بالمال . ولكنه كان واضحاً لنا أن مــا بالكيس مـن نقود يكفى لشراء ثلاث مراكب . وطلبنا له قهــوة . وسأله روزاكيس «هل ستبيت هنا الليلة ؟ » اجابه نور قائلاً : «لو أمكن ذلك أكون شاكراً . أريد اللحاق بقطار الثامنة

الذاهب إلى المنيا»

«حسنا ، سنتناول الافطار معاً فى السادسة . هل يناسبك ذلك ؟ »

وضع نور يده على رأسه علامة الامتنان والموافقة . وأعطاه روزاكيس مفتاح المخزن . وقد صار يعطيه المفتاح بدلاً من أن يغلق عليه باب المخزن ، لأنهما انتويا أن يصبحا شريكين . وفى التاسعة ذهبت واوقفت «خاريكليا» عن العمل . وأطلقت الصفارة معلناً انتهاء العمل . وفى التاسعة والنصف نهض روزاكيس ، وأستأذن فى الذهاب إلى بيته . كان قد بنى منزلاً بجوار أرض الدلجاوى . وأحضر بنتيه من عند الراهبات واشترى لهما «بيانو» كانتا تعزفان عليه طوال اليوم . أما أولاده الصبيان فكانوا يدرسون بالاسكندرية .

ونهض هيجلار بدوره وقال لى «هيا بنا» . كنت ارافقه إلى المحطة عادة كلما سافر ، وكنت فى كل مرة اتعلم منه اشياءً عن الماكينة ، فضلاً عن أن السير إلى المحطة كان بالنسبة لى نوعاً من النزهة . وقلت لنور «لا تنم ، فلن أتأخر ، وأريد أن أجلس معك» مر وقت طويل دون أن نتحادث . ولكن عندما عدت كان قد أغلق المخزن من الداخل . وعندما تصنت على الباب وجدته يغط فى النوم . فذهبت بدورى لانام .

وفى حوالى الرابعة صباحاً ولم يكن الفجر قد لاح بعد الحث على الحاجة إلى التبرز . لم يكن روزاكيس قد بنى لنا دورة مياه ، فكنا نقضى حاجتنا فى الخلاء . وذهبت إلى شجرة لبخ ، هى التى كان قد أصيب عندها زين . كان الظلام حالكاً . ونقيق الضفادع يتوافد من الحقول فضلاً عن صوت خفير عند الكبارى يتعالى ، فيرد عليه خفير آخر من عند المحطة . بعد قليل سوف يطلق مساعدى الصفارة موقظاً أهل المنطقة المحيطة ، معلناً بدء يوم عمل جديد ، داعيا العمال إلى عدم التخلف عن الحضور إلى المحلج . وسمعت فجاءة اصواتٍ وكأنها اصوات نسوة يغسلن الملابس على الشاطىء أصخت السمعَ ولكن دوى الصفارة مالبث أن غطى على كل شىء ، منطلقاً فوق الماء ، والحقول والقرى ، واصلاً إلى الصحراء حيث يتبدد ويضيع . كما مضى الصفير شرقاً ماراً على المدينة والنهر ، وعند تلال كوم جهنم تعثر واندثر . ساد الهدوء وتصنت لاسمع وقلت لنفسى لعلها تهيوآت ، ولكن كلا فقد كان هناك من يعدو على ظهر جواد فى الحقول والمزارع . وأثرت الاختباء لاخوفا من أحدٍ بل خجلاً من نفسى فلم أكن قد وجدت الوقت بعد كى ارتدى كل ملابسى بعد قضاء حاجتى ، فاحتميت بظلام الليل ، على أن الشروق بدأ يبسط ضياءه ويبدد ظلمة الليل ، وظهر الفارس أمام الطاحونة . وكان الجواد من تحته

يلهث بشدة ، وكأن صدره على وشك الانفجار . وكذلك الرجل الذى يمتطيه . وحدقت فى الفارس والحصان . ورأيت جواد روزاكيس الأسود يمتطيه نور دون سرج ودون لجام . وكان نور عارياً كما ولدته أمه ، وهتفت بداخلى قائلاً «يا له من مجنون . سيقضى بتهوره هذا على الحصان» . وشرعت ارتدى ملابســى على عجل . وسمع نور حركتى ، فأدار رأسه نحو الشجرة . ولمحت السكين بين اسنانه فاختبأت . نزل من على الجواد ، وادخله إلى الاسطبل . لزمت الصمت . ولما خرج من الحظيرة مر بجانبى ، ثم نزل إلى الماء وغسل سكينه . ثم غطس فى الترعة ، وراح يدعك جسده بحجر خفاف . ولما خرج وقع بصره على ، فنهضت واقفا فارتجف . وكان الصباح قد أشرق وغمر المكان بضيائه . نفض نور المياه من على جسده . حاول أن يحجب عنى عورته ، ومضى صاعداً . وقال لى «صباح الخير يا اسطى . كم هو منعش هذا الماء» ودلف إلى المخزن . دوت صفارة المحلج من جديد ، فاجفلت . ومضيت إلى الاسطبل لأطمئن على الحصان . تناولت فرشاة وقطعة اسفنج ورحت ادعك جسده . كان هذا الحيوان المسكين سينفق لو لم أصلح من حاله .

الفصل التاسع

فى تمام السادسة ارسل روزاكيس وجبة الافطار ، فطيراً ولبناً وجبناً وزبداً . ثم جاء هو الآخر ، ولكنه لم يشاركنا هذا الأفطار ، اذ الف أن يقضى الصباح بقدح من القهوة فحسب وجلس نور لتناول الافطار . وقال لى روزاكيس «اجلس ، لتشاركه الطعام» . فتحت النافذة المطلة على الفناء حتى أكون على اتصالٍ «بخاريكيليا»

وبعد الافطار جاء خادم يخبرنا أن سليماً بالأنتظار فى الخارج . وأنه يريد نور الدين بومبة فى أمرٍ ما . وقال روزاكيس للخادم«فليتفضلْ»

جاء سليم ونظر الينا ملقياً علينا السلام وعلى شفتيه ابتسامته الهادئة ، وأخذ نور إلى ركنٍ ، وراحا يتحدثان بصوت خفيض . ظل نور هناك ، وجاء سليم وجلس مع روزاكيس ليشرب القهوة . وقال :

– إذن ، فقد نام نور أمس بالمخزن . أليس كذلك ؟

وقال روزاكيس :

– نعم ، ولكن لماذا تسأل ؟

– هل أنت متأكد أنه لم يذهب إلى أسيوط مع المهندس

السويسرى؟

انتفضت قائلاً :

– رافقت أنا وحدى السيد هيجلار إلى القطار . وبقى نور هنا . وعندما عدت كان يغط فى النوم .

– وكم كانت الساعة آنذاك ؟

– ربما كانت الساعة الحادية عشرة أو الحادية عشرة والنصف لا أستطيع أن أحدد بالضبط ، لأننى سرحت قليلاً فى العودة .

نظر إلى روزاكيس متعجباً . أعرف . كنت أضيف نصف ساعة أو ساعة إلى الزمن الصحيح .

– ومتى كانت الساعة عندما فتحت بابه فى الصباح ؟

خشيت أن يقـول روزاكيس شيئاً عن المفتاح ، فبادرت مجيباً :

– فى الرابعة والنصف ، عند الصفارة الثانية .

– وهل كان بالداخل ؟

– بالطبع كـان بالداخل . وأين كان يمكن أن يكون سوى هناك؟

وعاد روزاكيس يسأل :

– ولكن ما الخطب ؟

اجابه سليم قائلاً :

– انتظر قليلاً .

عاد إلى نور وسأله :

– إلى أين أنت ذاهب الآن ؟

– سآخذ قطار الثامنة إلى المنيا .

– حسناً . انصرف .

– لازال الوقت مبكراً .

– اقول لك أنصرف . وكن مديناً للخواجة روزاكيس ، الرجل الحكيم . انقذتك شهادته .

رفع نور كتفيه ، مبدياً عدم العلم بشيء . حيانا ، وانصرف .

وقال سليم :

– وعند الحاجة ، سيستشهد بالسويسرى . مادام انه لم يكن معه فى القطار ، كيف يمكن أن يتواجد اذن فى منتصف الليل بأسيوط ؟

وسأل روزاكيس :

– ولكن ما الذى حدث فى النهاية ؟

– شىء خطير حدث فى أسيوط . فى الخامسة صباحاً اخطرنا بأن نجمع كل الفلاحين الذين كانت لهم مشاكل مع أبى سنة .

– هل اصاب كوكسن مكروه ؟

– ليس هو الذى أصابه المكروه . بل شخص آخر ، لا يذكرون اسمه . بل أن كوكسن نفسه اذن له بالسفر إلى انجلترا . هيا . علىّ أن أنصرف . منذ الفجر وأنا أجرى الاعتقالات . سوف يصب علينا الباشا أيضاً غضبه . بعض من اتباعه هو ذاته أجرينا القبض عليهم بدورهم .

وقال روزاكيس :

– ولكن نور تركته يذهب .

– وشهادتك ؟ لو قبضت عليه لكان ذلك أهانةً بالغة لك ، وفضلاً عن ذلك فقد أوصونى بأن أقبض على فلاحين ، وهو ليس فلاحاً ، بل وفى ديروط يعتبرونه من رجالنا . ولسوف كان التعرض له يسبب فى حقنا سوء فهم . على أنه لو كان أبو سنة الذى اصابه مكروه لما كنت قد تركته .

نهض سليم لينصرف . وسأل :

– وماذا عن الحصان ؟

أجاب روزاكيس :

– أنه بخير ، تعال لتقول له صباح الخير .

ذهبنا نحن الثلاثة إلى الحظيرة . ربت سليم على جسم الحصان ولاطفه . تحسس موضع السرج . ثم ادار رأسه ناحية

الضوء تفحص موضع اللجام . وقال :

–يبدو عليه الاجهاد .

وأجاب روزاكيس :

– كلا ، أنت مخطيء في ذلك . أنه فى نضارة ورد الصباح .

ولم يكن يكذب فيما قال .

ومضى اليوم . وكان يبدو على روزاكيس أنه يريد أن يقول لى شيئاً لكن التردد كان يغلبه . ولم أكن أوليه أكتراثاً .

وفى الليلة الثالثة ، انصرف الكتبة وكنا نستعد لاغلاق المكتب . ظهر نور ، وقال لروزاكيس :

– الامانة .

فتح روزاكيس الخزانة واخرج الكيس ووضعه على المكتب ، فأمسك به نور .

قال له روزاكيس :

– لحظة .

وأخذ الكيس من يده . مزق الورقة التى كانت مثبتة عليه . ثم أودع الكيس فى الخزانة من جديد وأغلقها . ظل نور ينظر اليه منتظراً ماذا سيقول .

قال روزاكيس :

– أهلكت الجواد . ومثل هذا الجواد يساوى مراكب كثيرة !

نظر نور إلىّ . ونظرت اليه محملقاً . أخفض اهدابه الطويلة وكأنه يقول لى «ابق بعيداً عن كل هذا» والتفت إلى روزاكيس قائلاً «ايها اللص !» واختفى .

أما ما حدث بعد ذلك ، فقد حدث بسرعة وعلى نحو غير متوقع . بادىء ذى بدء كتبت الصحيفة اليومية - وكان يتلقاها من القاهرة بالبريد صاحب المقهى الذى يجلب الحشيش - كتبت بالبنط العريض «الجثة المقطوعة الرأس لم يتعرف على صاحبها» ثم مضى الخبر يتحدث عن «السيدة كوكسن . .» تصور كان لهذا الكلب أم . ولم تنشر الصحف العربية شيئاً عن هذا الحادث . وقررنا نحن «الأجانب» أن نبقيه سراً بيننا حتى لاينتقل إلى «أهل البلد المصريين» ولكن مالبث أن ذاعت اشاعة مؤداها أن بومبة ربى شاربه من جديد . منذا الذى رآه ؟ وأين ؟ لم تشر الاشاعة إلى ذلك من قريب أو من بعيد . وذات ليلة ، علقت بشباك أحد الصيادين عند الكبارى الرأس الذى كان قد القى به فى ترعة الابراهيمية . كانت منتفخة كالبطيخ . وقد التهمت الاسماك العينين والأذنين والشفتين والأنف . ولكن كانت فى فمه ثلاث اسنان ذهبية . الاسنان الامامية التى كانت تومض وتلمع . «هذا أبو سنة» أخذ الرأس أحد الخفراء ودسها فى جوال ، وجرى بها إلى دار العمدة . وتناقل الناس الخبر «بومبة قتل أبو سنة . انتقم لنفسه» وانطلق

اعوان العمدة مثل قطيع من الذئاب المسعورة للامساك بنور والفتك به . ولكــن نور كان قد اختفى كما لو كانت الأرض انشقت وابتلعته . .

وجاءت قوات من شرطة اسيوط ، وانطلقت البرقيات ، وانقلب البلد رأساً على عقب . وقد استدعيت أنا وروزاكيس للتحقيق أكثر من مرة .

وأخذنا إلى قريته ، ولكن لم يكن ثمة أثر لبومبة ، ولا لأخيه ، ولا لأبناء عمومته هناك بل ان المحققين ذهبوا حتى إلى حميه . ولكن بلا جدوى . وقيل «لابد انه مع المطاريد فى الجبل» وجن جنون سليم «أفلت من بين يدى ! » أخذ حصان روزاكيس وكأبرع فارس ذهب إلى أسيوط ، وعاد فى خمس ساعات ونصف ، كالطائر يفتح جناحيه ويطوى المسافات . هذا مستحيل ! »

وفى القرى ، راح الفلاحون يدعون لنور ، ويقولون «سلمت يداك يا بومية . خلصتنا من شيطان» وأضحى نور الدين بومبة اسطورة . فى اليوم ذاته كانوا يرونه فى الكوم ، وفى أسيوط ، وفى المنيا ، وعلى ظهر مركب فى منفلوط . وسرت أشاعة بأنه مختبىء عند زين . تحرك الباشا على ظهر جواده وذهب (لأول مرة منذ سنين طويلة) إلى دار العمدية . ولم يمكث هناك طويلاً . وقال للموجودين «اسمعوا لو كان قد قتل واحداً منكم لأخفيته عندى ،

ولكن ان يقتل اجنياً ، ابداً» وركب جواده وانصرف ولم يتوقف ليستمع اليهم . كان يعرف ما سوف يقولون .

وذات ليلة اشتعلت النار فى اقطان البنك . فقال الفلاحون «هذا فعل بومبة» ، وذات مرة صدم القطار عجلاً عند اجتيازه خطوط السكة الحديد ، فقال المراكبية «هذا من تدبير بومبة» وامتنع أصحاب المحال الصغيرة عن دفع الاتاوات ، فقال اعوان العمدة «لبومبة أصبع فى هذا» وكان واحد يسرق ماءً فنسى الخزان مفتوحاً ، فغرقت بعض من أطيان الباشا ، فقال الجميع «هذا من تدبير بومبة» .

بعض العمال والفلاحين تركوا البلد واختفوا ليلاً . وصار عمال المحلج يتسكعون فى الساعات الأخيرة ليوم العمل الطويل ، وكادت «خاريكليا» أن تتلف .

وأتى الشتاء ، شتاء ناعم دافىء مثل القطيفة . وكانت فى أعماق الليل تسمع أصوات تقول «نور الدين بومبة جاى ! » وهو ما كان يعنى أنه قادم كى يهلك الطغاة . وقد جن جنون العمدة وأعوانه . وخرجوا يتربصون للناس واطلقت النداءات والتحذيرات من خلال الاقماع المكبرة للصوت .

كانت هذه معالم التغيير الطارئة على الأوضاع التى توجس منها الباشا شرا . وقد جاءت مندفعة مباغتة .

الفصل العاشر

سطعت شمس الشتاء دافئة ذهبية اللون . تخطف انظار أهل الكوم الذين تجمعوا على التل يشاهدون باخرة نيلية من بواخر «كوك» التى تطوف بالسياح على المعالم الأثرية فى الأقصر . كانت بيضاء اللون ، بل وناصعة البياض ، تعلوها مدخنة كبيرة . وكانت قادمة من الجنوب ، وراحت تقترب من القرية إلى أن رست عند الشاطىء . وكانت تبدو خالية إلاّ من بعض الخدم السودانيين بجلاليبهم الناصعة البياض واحزمتهم الحمراء ، راحوا يتسكعون على ظهر الباخرة ، ويطلون إلى الماء والى الشاطىء . وساد الهدوء . وكانت ملابس أهل الكوم المهلهلة ترفرف فى الهواء على التل .

وقال واحد منهم لآخر بجواره :

– هذا رزق أتى الينا . يبدو أن بها عطل . ما رأيك لو أجهزنا عليها الليلة ؟

واجابه الآخر :

– كلا . انها باخرة كبيرة .

وقال ثالث :

– انظروا ، ترافقها قوارب .

كان التيار يدفع بقاربين كبيرين ملحقين بالباخرة ، التى كان جسمها يخفيهما عن الانظار .

قال آخر ، فى قلق :

– متى أتت هذه الباخرة ؟ لماذا لم نسمعها وهى قادمة ؟ وكيف لم نر اضواءها طوال الليل ؟

وهمَّ القـزم ذو الوجه البليد أن ينصرف ، ولكنه تسمر فى مكانه ، يحك جلده مثل قردٍ . وفجأة ، ظهرت من وراء التلال المحيطة بالقرية قوات من الجيش .

– انظـر بعضهم هنا ، وبعضهم هناك ، انتشروا فى كل مكان . عجباً لماذا يحاصروننا ؟

جرى القزم إلى «غرزته» . وانطلقت طلقة بندقية من الباخرة . وضع الجنود السناكى على البنادق ، وبدأوا يهبطون التل صائحين مثل الشياطين . كانوا اناساً متوحشين يضعون على هاماتهم عمائم سوداء غريبة ، ويعقصون مثل النساء شعرهم الأسود الطويل . كانوا كتيبة من السيخ الهنود ، جلبها الانجليز من السودان إلى كـوم جهنم . تسلل الخوف إلى قلوب أهل القرية . ودب بينهم الهرج ، قفز اثنان أو ثلاثة منهم إلى النهر للنجاة بأنفسهم ولكن آخرين تمالكوا أعصابهم ، ونادوهم أن يرجعوا ، قائلين :

- كلا ليس هكذا . يجب أن نبقى جميعاً معاً ، ونرى ماذا يريدون منا . فلنمض راجعين إلى قريتنا .

وتجمعوا في وسط القرية . وجعل صياح جنود السيخ أهل القرية جميعاً يتركون ديارهم ، ويخرجون ليروا ما الحدث .

وأطلق الجنود بعض الأعيرة النارية في الهواء . صرخت النساء ، وبكت الاطفال . وهتف واحد من الشيوخ يقول :

- لاتخافوا . إجلسوا على الأرض . يبدو أنهم يبحثون عن نور . لن يجدوه وسينصرفون من حيث أتوا .

جلس الجميع على الأرض . عقدوا ايديهم حول ركابهم مثلما يفعل المساجين وقت الراحة من الاشغال الشاقة ونهضت والدة نور ، وقالت للجميع :

- ياأهل البلد ، أوصيكم خيراً بسعاد . لم يعد الأمر هزلاً

ونهضت امرأة أخرى تقول :

- انهم لم يحضروا بحثاً عن بومبة . انهم جاءوا من أجل المراكب . سوف ترون .

انخرطت النساء والأطفال في البكاء والنواح .

- اهدأن . لاتفعلن هذا !

حاصرهم الجنود من كل جانب . ندت عن الجميع غمغمة . ثم خيم عليهم الصمت والترقب . وأحضر اخرون ، اولئك الذين لانوا

بالديار يختبئون . كما أحضر القزم أيضاً ضمن من أحضر .

نهض شيخ القرية ، بدأ يسأل . لم يجب الجنود عليه بشيء . امسك به أحدهم من يده ، وانتحى به جانباً . كما اقتادوا آخرين إلى هناك . عزلوا الرجال والشبان . اجفلت النساء قائلات «سيأخذونهم ! » سحب الهنود من احزمتهم سياطاً ذات عقد بنفسجية ، وطرقعوها فى الهواء . خيم صمت مثل صمت القبور .

ذهبوا بهم إلى خارج القرية . حوطهم عشرة جنود وضيقوا عليهم الخناق فى دائرة صغيرة ، وصوبوا بنادقم اليهم . ورجع بقية الجنود إلى القرية . امسكوا بالنساء واغتصبوهن . قطعوا ملابسهن بالمدى واغتصبوهن . بكت الأطفال ، ولطمت البنات وتعــالت الصرخات والتوسلات ، وما من مجيب لرجاء أو استعطاف . لمحت والدة نور أحد الجنود الشرسين يقترب من سعاد هجمت عليه ، وخمشت وجهه باظافرها ، فدفعها دفعة قوية القت بها ارضاً ، حيث استقرت ميتة . جرت أحدى النسوة مضرجة فى دمائها هاربة إلى النهر والقت بنفسها فى مياهه حيث جـرفها التيار ، وراح الجندى الذى كان يلاحقها يتابعها فى دهشة .

كان رجال القرية يسمعون ، ولا يفهمون ما يجرى . لم يحتمل أحدهم ذلك ، هـب واقفاً فاطلقوا عليه النار ، واردوه على التو

قتيلاً . عند الظهيرة ، جاء عشرة جنود ، حلوا محل اولئك الذين كانوا يحرســون الرجال . كانت ملابسهم مترية ووجـوههم مليئة بالخدوش ، ومضوا مشرعين السلاح ، مهرولين .

وفى الثانية بعد الظهر ، اخذوا يخلون المنازل من العجائز والأطفال الذين اختبأوا فيها . لملموا النساء ووضعوهن جميعا عند الشط . صاحت النساء والأطفال «إنهم سيغرقوننا الآن ! » لم يبق سوى جثمان والدة نور هناك فى القرية الخالية .

وبدأوا ينسفون القرية فى الثالثة . ولم يلبث أن استحالت منازلها التى لم تكن تزيد على خمسين منزلاً حجارة وتراباً وحطباً يابساً محترقاً . وتصاعدت سحب الاتربة والدخان وغطت الكوم .

سمعت بالكارثة قرى النوبارية على الشط المقابل . ورأوا الدخان المتصاعد من الكوم ، فهرع فلاحوها يبحثون عن قوارب تقلهم إلى هناك ليتبينوا حقيقة ما حدث . أهى الحرب اطلقتها باخرة كوك ، أم أنه احتفال يقام للخديوى عباس ؟

قبل غروب الشمس ، كانت الأوامر كلها قد نفذت . النساء على الشاطىء تصرخ وترتعد من شدة البرد . ابقوا الرجال على رابية قريبة من الباخرة . ورست القوارب على الشاطىء ، وأخذت تنقل الجنود على دفعات إلى الباخرة . كانت المدخنة تضخ دخانا أسود . وعلا صفير الباخرة . وبدأت العجلات تدور وتضرب الماء

واقلعت الباخرة مضيئة انوارها كلها . بقى الرجال عالياً والنساء على جنب عند اقدام كوم جهنم التى ما عادلها وجود .

مر يوم ، مر يومان . خرج الباشا على صهوة جواده ، وطاف بكل القرى التابعة له . قال «هل علمتم بما حدث ؟ سيحدث لكم ما هو أفدح من ذلك ، مثل كلب مسعور عليكم أن تنكلوا بنور ! » اجتاز الحقول ، وذهب إلى سراى أخيه زين على مشارف الصحراء .

قال له زين ذو الفكين الملتويين «ماذا تقول للناس ؟ هل سنتحد الآن مع العمدة وأعوانه ؟ »

«يا لك من غبى . انك لاتعى من أمرك شيئاً ، أعمتك متع النساء . اخرج قليلاً من مجالس الحريم لترى ماذا يجــرى من حولك . كان فى ضيافتك ، يأكل من أكلك أسبوعاً بأكمله . ورجال من اتباعك مرروه إلى البدو فى الواحات» .

وقد كان ذلك حقيقة ، فقد مر نور ورفيقاه من هناك للاتصال بالبدو على مشارف عزبة زين .

جمع زين رجاله ، واشبعهم ضرباً .

– هذا لتتعلموا ألاّ تنفردوا باتخاذ تصرفاتكم .

ثم قال له الباشا :

– والآن ، افتح عينيك جيداً . بعد هذا الذى فعله الانجليز

بقريته سوف يريد الانتقام . وعندئذ ، من هنا سيمر .

انكمشت القرى ، وانطوى الفلاحون وأصحاب المحال الصغيرة على أنفسهم . وعادت الأمور إلى أوضاعها القديمة . فيما عدا العاملين بمحلج الأقطان ، فقد كانوا لايكتمون بكاءهم ، إذ سحقتهم الحسرة على ما حدث .

وذات ليلة ، طرق باب جاد الرب صبى وقال «على شاطىء النوبارية شحاذة تريد مقابلتك ، ومعها طفلان ايضاً» رفع العجوز قبضة يده وضغط بها على قلبه . «إجر يا ولدى ، قل لها ان تنتظرنى ، قل لها أننى فى الطريق اليها ! »

كانت سعاداً . أخذها العجوز فى حضنه وانخرطا معاً فى البكاء . امضيا الليلة هناك فى الزمهرير . ظل طوال الليل يفكر . وعندما لاحت تباشير الفجر نهض وحده . ذهب إلى أحد البنائين مـن أهل بلدته ، وأخذه إلى داره . هدم الباب القديم وفتح باباً آخر ، وبنى لابنته حجرة جديدة . سحب العجوز سعاداً من يدها . كانت القرية قد تجمعت وراحت تتابع ما يجرى . «مرحباً بك فى بيتك ، يا ابنتى . بارك الله فى ذريتك»

وما ان سمعت سعاد هذا حتى سقطت ارضاً ، وانكبت على النحيب «ابتاه ، يا أهل بلدتى ، يا أيها الناس المؤمنة ، أفعلوا شيئاً من أجلى . سيذبحنى نور ! » ومضت تضرب الأرض براحتيها ومرفقيها «لقد حملت سفاحاً من الجنود الزبانية ! »

الفصل الحادى عشر

استنشق بوليفيو النسمات الرطبية بشدة وامتلأت رئتاه بالهواء .

– نحـن على مايرام هنا . جو جاف ، غذاء نقى ، ومرتب مجزٍ . لكن ثمة ما ينهش جوانحى . وبالليالى ، أشعر بسيخٍ يتقلب مغروسا فى مهجتى ، وتنتابنى الرغبة فى البكاء . كانت تلك سنينٌ مختلفة . وكانت الحياة تشبه حلبة نضال . كنت أعبر الجسور فيلسعنى البرد ، وتزكم أنفاسى رائحة المياه والتراب الندى . ولم أكن أعرف ما اذا كنت سأصل بيتى حياً أرزق ، أم ستكون نهايتى برصاصة ، أو بطعنة سكين ، أو بضربة نبُّوت . كنت على الدوام اتوقع أن يجهز أحد على حياتى بنحو أو بآخر . هل عرف نور أنه لم أكن أنا الذى أبلغت عنه ؟ وقد صار أعوان العمدة يرتابون فى كما أضحى روزاكيس كتوماً شديد التحفظ . أما الباشا فكان يخاطبنى باستعلاء كما لو كان فى حديثه إلى يمتطى صهوة جواده .

ومع مرور الوقت ، عرف أنه لم يكن العمدة وأعوانه هم من امروا بتخريب الكوم ، بل كان الباشا . زاد ذلك من انكماش الفلاحين وانطوائهم على انفسهم . والف أصحاب المحال الصغيرة

الآن صوت الباشا ، الذى لم يكن يسمعوه من قبل الالماما . أصبح يخرج إلى المدينة ويشترى من المحال . وادرك الناس مغزى ذلك سريعاً ، وتساءلوا هل يرمى بذلك إلى تحسين العلاقات ؟

وجاءت الحرب العالمية الأولى ، فاسترد العمدة وأعوانه وضعهم السابق . أعلن الأنجليز عن حاجتهم إلى متطوعين للعمل فى معسكراتهم . جمع سليم أول الأمر كافة المتعطلين فى الناحية وكان منهم نفر من لاجئى الكوم ، فهؤلاء لم يجدوا اشفاقاً من أحد ، واضحوا جرحاً تعانى منه قرى الابراهيمية كلها ، وسنحت بذلك الفرصة للتخلص منهم ، ولم تر ترعة الابراهيمية من قبل قدر ذلك العدد من البواخر التى تمخر عبابها فى طلب المتطوعين . وكان العمدة يشحن من يسميهم «المتطوعين» فى عربات مقفلة ويبعث بهم بالقطار إلى القاهرة . ثم استدار اعوان العمدة صوب القرى ، فكانوا يمسكون بمن لا يرضون عنه ، أو لا يروق لهم ، أو لا يدفع لهم ويرسلونه ضمن افواج المتطوعين إلى العاصمة . وكان من ضمن من تطاولت اليهم يد العمدة أيضاً بعضاً من عمال الباشا وفلاحيه . على أن الباشا كان له أنصاره داخل الوزارة ، ولكنه عندما اشتكى اليهم نصحوه قائلين «الزم الهدوء ، الآن تطبق الأحكام العسكرية» وشحت الايدى العاملة فى محالج الأقطان . وقال مقاول الأنفار «لايمكن أن تسير أمورنا على هذا الحال .

أصبح علينا أن ندفع الآن مبلغاً مقدراً من المال عن كل رأسٍ لأعوان العمدة» وكان روزاكيس يدفع ولكنه يضيف ما يدفع على سعر الحلج ، ولم يكن يكترث لذلك ، فقد كانت أعماله تسير على أحسن حال . كما أنشأ ورشة ميكانيكية وضع آلاتها فى الأسطبل القديم : فرن ، وموتور ، ومخرطة . وتولى عمليات صغيرة مثل اصلاح الأكسات ، وعجلات العربات الكارو ، وآلات الرى ، والفؤوس والمناجـل وغيرها . وجلب لهذه الورشة مديراً يونانياً لصاً . أما أنا فلم أرد أن أتخلى عن «خاريكليا» .

لم تكن علاقات روزاكيس تسير على مايرام مع المدير الذى عينه ، ولكن بالورشة كان يشتغل أيضاً عامل اسمه عرفة ، وكان انسانا ممتازاً ، استمتعت بصحبته . وكان عرفة هذا رجلاً قبطياً من ديروط ، جاب بلاداً كثيرة . وكان به ميل إلى الرسم ، واشتغل ردحاً من الوقت مع اسطى ايطالى فى ورشة ميكانيكية بالقاهرة حيث تعلم صناعة «القوالب» من الخشب تصب فيها خامة الحديد المنصهر . كل ما كان يعيبه فى عمله البطء الشديد فيه . ولكنه كان ذكياً . يرى كل ما هو معوج ، ولايخفى عنه أى اعوجاج ، ولايتوانى عن الابانة عنه . كان يزم شفتيه الغليظتين ناحية أحدى أذنيه ، ويمصمص لعابه قائلاً «هذا حال الدنيا» ثم لا يلبث أن يردد قوله «كل شىء من عند الله» وكان يعنى بذلك أن الأمور كلها تجرى

بأمر الله وحده . ولكن هل كان يؤمن بما يقول ؟ كان فى أحاديثه يلقى التبعة عن بؤس الناس على الانجليز والباشا وعائلة الكمانى ويبقى روزاكيس فى نهاية القائمة . وكان ينتظر إلى كى يرى على أى محمل سآخذ كلامه . وقد أخبر هيجلار الانجليز بأمر الورشة ، فاستدعوا روزاكيس ، وطلبوا منه أن يصنع لهم بعض لوازم القنابل اليدوية والالغام . واعتبر روزاكيس ذلك خيراً هبط عليه من السماء ! ولكن الفلاحين كانوا ساخطين أيضاً . كانت الأسعار فى ارتفاع كل يوم ، من لمبة الغاز إلى الدبابيس . ومن ناحية أخرى ، فقد فرض الانجليز التسعيرة الجبرية ، ومضوا يجمعون المحاصيل بأرخص الاثمان . كانوا يعصرون الناس عصراً . ويمشطون الحقول وزراعات القطن ، ويبعثون محصلى الضرائب وبرفقتهم العساكر . وينهال السوط على ظهر الفلاح الممتنع . وأصابت الدودة القطن فى العام التالى ، والتهمت المحصول ، ولم يكف الناس كل ذلك ، بل فرضت ضريبة جديدة ، ولم يرق هذا للفلاحين اطلاقاً . «انكم تجمعون رجالنا ، فتخربون قرانا ، وتسرقون المحاصيل وتنهبونها ، أو تفرضون علينا الضرائب . ومن أجل ماذا كل هذا ؟ من أجل أن تحاربوا الاتراك . الأمر الذى لانرضى عنه» هذا ما كان يردده رجال الباشا اما اذا التقوا بروزاكيس فإنهم كانوا يبادلونه تحية الصباح بجفاء . وذهب الباشا إلى

الضيعة عند أخيه زين . وحسن روزاكيس من علاقاته مع أولاد الكمانى ، وكان على الدوام يعطيهم الحق . وكانت لديه صورة للزعيم اليونانى فينيزيلوس ، كتب عليها اهداء منه ، فكان يزهو بها . اما شكاوى الناس فما كان يهتم بها . وذات مرة قال لى عرفة :

– كان يجب أن يكون نور هنا .

قلت له :

– كيف تذكرته . فلينعم الله عليه بالخير اينما كان . من يدرى أين هو الآن ؟

لم أكن قد رأيته بعد تلك الليلة . وما عادت سعاد على قيد الحياة . حاولت انزال الجنين الذى فى بطنها ، مستخدمة فى ذلك ملعقة ، فأصيبت بنزيف حادٍ أودى بحياتها ، وفاضت روحها بين يدى جاد الرب . وذهب شقيق نور وابن عمه إلى القاهرة ، سيراً على الأقدام ، وقد استبد بهما الارهاق والأرق ، ومثلا امام أولى الأمر مثل شبحين . وقد حمل كل منهما كفنه تحت ابطه ، وطلبا من السلطات العدل والرحمة . قبضوا عليهما ووضعت الاصفاد فى ايديهما . ونشط الانجليز فى البحث عن نور ، وقد علموا أنه يعمل على المراكب ، ويتنقل من مركب إلى آخر . ومن ناحية أخرى ، فقد نما إلى علم الرهبان أن ثمة شحاذا يجوب الاديرة الممتدة حتى

البحر الأحمر شرقاً ،وربما كان هو نور ، بينما كان الباشا لازال ينتظره أن يظهر من طريق الواحات غرباً .

ومضت ثلاث سنوات قامت فى روسيا ثورة . وصاح الجميع «خيانة» وقد عرفت انهم كانوا ينهبون ويسرقون المزارع . ولكى اكون صريحاً معك فإن هذه الاحداث لم ترق لى . أما عرفة فكان له رأى آخر وقال «أن الشعب قد طفح كيله . هذا ما كان يستحقه الحكام هناك» قلت له «يقول المثل انزل أنت لأجلس أنا . وهذا ما تقوله أنت أيضاً» ولكننى ندمت فيما بعد لأننى تفوهت بهذه العبارات لعرفة . لم يغضب بل تعجب ، ونظـر إلى قائلاً «إيه ، دنيا ! »

وقـد عاد بضعة افراد ممن كانوا قد جندوا للعمل فى الكتائب - عادوا خفية هاربين وحكوا عن الاهوال التى لاقوها ؛ أشياء رهيبة حقاً . انهم يموتون كالذباب فى صحراء سيناء . وارسل بعض الانفار إلى فرنسا لحفر الخنادق والاستحكامات . حيث ماتوا متسممين من الغازات ، ومنهم أيضاً من فقدوا الابصار من جرائها . وسرى الحزن فى الكفور والنجوع ، وعلا النواح والنحيب . وقال لى عرفة «أرأيت ؟ كم هى ملحة الحاجة إلى وجود نور ؟ » كان يعرف اننى لازلت أحب نور ، ومضى قائلاً «هؤلاء فى روسيا رجال جسورون مثل نور» .

وفى تلك السنة أو قبلها بقليل ذاعت اقاويل بأن السنوسى وقبيلته فى ليبيا قاموا بانتفاضة ضد الانجليز ، ويمارسون ضدهم حرب العصابات ، وان الباشا يمدهم فى الخفاء بالزاد والاموال على ظهور الجمال من ضيعة آخيه زين . وقلت لعرفة «لو أن نورا لازال على قيد الحياة ، فلابد أنه هناك» ونفى عرفة ذلك ، وأصر عـلى نفيه كما لو كان يخبىء نوراً فى جيبه . وقال «لو أنه فى ليبيا ، فمنذا الذى خطف ابنه الصغير نمنم من بين أحضان جاد الرب ؟ » وكان نمنم آنذاك صبياً فى السادسة من عمره . وكان جاد الرب يقول حزيناً لسليم عندما جاء للتحقيق معه «ضاع . وما عدنا نعثر عليه . مـــاذا أقول لك ؟ لم يبق لنا سوى الطفلة ابنته ، عزاءً لنا . . »

وفى عام ١٩١٨ طلع علينا الرئيس ويلسن بنقاطه الأربعة عشر ، ووعد بالتزامها . وعلم حزب الباشا بتصريح ويلسن . ومضى رجاله يقولون : «نحن بدورنا نريد استقلالنا . لا نريد على رؤوسنا مفتشين انجليز» وكان الفلاحون يتجاوبون مع هذه الأقوال ويقولون «ماعدنا نطيق هذه الحياة . حتى الحثالات اكلناها . واضحى أولادنا يبيتون جياعاً . الموت أهون علينا من مثل هذا الهوان»

وفى اليوم التالى لاعلان الهدنة ، ذهب سعد زغلول باشا مع

زملائه إلى مكتب المندوب السامى البريطانى ، وطالبوا بالاستقلال التام . وأجاب الانجليز قائلين «سوف نرى» وقامت المظاهرات فى القاهرة والاسكندرية . ومضى عرفة يردد لى ماسبق أن قاله : «لنور الدين بومبة أصبع فيما يحدث» . وحدثت اضرابات فى انحاء البلاد ، وتوقف الترام فى القاهرة . فقال عرفة «لنور الدين بومبة أصبع فيما يحدث» . ثم قلت رؤيتى لعرفة فى تلك الآونة ، فقد راح هذا الرجل الوديع ، يدور مثل النحلة فى أزقة ديروط . أخذ الوطنيون يقطعون اسلاك التلغراف ، ويخرجون قطارات من على قضبانها . «لنور أصبع فيما يحدث» وترك الباشا سراى زين ، وعاد يتبوأ عرشه ، وانغمس فى المشاورات مع جيرانه ، من كبار الملاك ، مسلمين كانوا أو اقباطاً . زاره أحـد المحامين الكبار ، من الاقباط ، وكان خطيباً مفوهاً ، وخطب فى الناس ذات يوم يقول «الدين لله ، والوطن للجميع» سمع اتباع العمدة ذلك ، وارادوا استغلال ذلك لاشاعة البلبلة ، وشحن الرأى العام ضد الحركة الوطنية . وقالوا للناس تفهمون معنى ما قيل ؟ انهم سيأتون إلى هنا بتجار يهود وسوف يعمل هؤلاء على افلاسكم . ولكن هذه الفرية لم تنطل على الناس ، اذ كان يصعب تصديقها .

وعدل روزاكيس عن موقفه من تحاشى الباشا ، وذهب بعد هذه السنوات العديدة من الابتعاد إلى قصره ليشرب معه القهوة .

وقدموها له بسكر خفيف كما اعتاد أن يشربها . وقال الباشا «فى منطقتى كل شىء مضمون ومأمون . انك ترى ذلك بنفسك ، وما الذى يجعلك أنت تخاف ؟ مع اليونانيين أكلنا عيشاً وملحاً . اليس كذلك ؟ »

وفى اوائل مارس اعتقل الانجليز سعد زغلول وزملاءه ، ونفوهم إلى مالطة . لم تكن الأمطار قد نزلت فى ديروط منذ خمس سنوات . وذات مساء اظلمت الدنيا فجأة ، وانخفضت السماء سوداءً ، وثقيلة مثل الرصاص . تصبب الناس عرقاً ، واختنقت انفاسهم ، استبد بهم الخوف . ثم انهمرت سيولاً من الأمطار ، مصحوبة بالبروق والرعود ، وأغرقت كل شىء .

الفصل الثانى عشـــر

أشرقت الشمس جافة حارقة . وامتلأ الجو بالبخار المتصاعد من الأرض ، فبدت كما لو كانت تغطت بنسيج رقيق من الدمقدس الأزرق . ومضى الناس يقولون أن الصيف هذا العام سيجىء شديد الحرارة . وجفت الشوارع والازقة فى مدى يومين . وطلب الباشا من الفلاحين جميعاً أن ينزلوا إلى ديروط ، حيث سيقام اجتماع . واصطحب معه المحامى القبطى ، وذهبا إلى منفلوط فى الليلة السابقة على الاجتماع كى يستنهضوا همم الناس هناك أيضاً للحضور . وعندما ذهبا إلى المحطة كى يستقلا القطار للعودة ، قيل لهما أن به عطلاً . وكان عليهما الانتظار حتى العاشرة ، ليستقلا الاكسبريس النازل من الأقصر . تجمع الشعب فى المحطة لتحيتهما ، واستمرت افواجه فى المجىء . صعد المحامى على دكة صغيرة ، والقى خطبة . وراح الناس يهتفون بحياته ، وقد تصاعد الحماس حتى اندفعت الجماهير تحول دون ركوب الباشا للقطار الذى دخل المحطة ، وصاحوا بصوت واحد «كلنا نسافر معه» وهجموا على الابواب والنوافذ ، وامتلأت العربات بركاب لايدفعون أجر سفرهم . وقد شق الباشا والمحامى طريقهما بعد لأى . ملوحاً بعصاه فوق الرؤوس ، حتى وصلا إلى عربة

الطعام واحتميا بها ، مغلقين بابها عليهما . وجدا فى العربة ثمانية من الضباط وصف الضباط الانجليز . مضوا يرمقونهما ، شاحبى الوجوه ، وقد جزوا على نواجزهم ، وفى احزمتهم ثبتت المسدسات .

ووصل القطار إلى ديروط . وهنا كانت جموع أخرى مثل النمل ، بالانتظار . وكانوا يحملون اعلاماً ولافتات ، ويهتفون بحياة الباشا ، وينادون بالاستقلال . وأطلق الحراس اعيرة نارية فى الهواء لينفض القوم من طريق القطار . وأقبل أهل منفلوط وأخذوا الحاضرين بالأحضان وانتابهم ما يشبه الهوس . صفر القطار ، فقالوا «كلا لن يسافر !» تسلق المحامى من جديد سور المحطة ، ومن هناك ، أدلى بخطبة نارية ، فهتفوا له بجنون . انبرى الباشا بدوره لالقاء خطبة ، وقد سرت فى دمائه الغيرة والحماس . وإذا به يقول «ايها الناس ، تنادون «الموت للانجليز ! » ولاتفعلون شيئاً . ها هم بداخل القطار ، فاقتلوهم ! » اسرع سليم يجرى إلى السائق وقال له «تحرك . . مزقهم فى طريقك . . سارع بالرحيل ! » دوت مراجل القطار ، ونفث دخاناً حارقاً ، فالتهبت سيقان البعض ، وانطلق يتحرك . ولكن مالبثت الجموع أن لحقت بالقطار شهر الانجليز مسدساتهم . وقبل أن يصل القطار إلى دير مواس كانت الجموع قد مزقتهم تمزيقا . ثم مضى القطار إلى

محطة ملوى التالية . ثم توقف تماماً عن المسير ، فقد كانت القضبان قد خلعت من موضعها .

وفى ديروط ، حطم المتجمهرون محولات السكة الحديد واشعلوا النار فى مكتب التلغراف . ثم توجهوا إلى قسم البوليس ، ودخل الباشا وحده إلى غرفة مكتب المأمور ، وأغلق الباب عليهما حيث اجتمعا على انفراد ، وتبادلا الحديث .

كان لدى المأمور عشرة جنود مسلحين بالبنادق ، وضعهم تحت تصرف الباشا الذى امتطى جواداً وانصرف بهم . ومن هناك عبر المتجمهرون كوبرى النوبارية الصغير ، وتوجهوا إلى دار العمدة . وعلى رأس السلم ، وقف سليم وقد شبك ذراعيه على صدره ، ومن ورائه الخفراء العشرون مدججين بالسلاح . صعد الباشا درجات السلم وبصحبته المحامى . أفسح لهما الطريق ومرا . خمدت اصوات الجموع ، وخيم الصمت .

وقال الباشا :

- حانت الساعة اخيراً . وسوف نضع الأمور فى نصابها الصحيح، حتى نعيش جميعاً كأخوة . الوطن للجميع ، وما فات يجب أن يطويه النسيان .

وقال له عمر الثعلب :

- جئت فى الوقت المناسب . كنت أنوى الاستقالة ، بسبب

مرضى .

وقال الباشا :

- حسنا ، سأتولى أنا مهام العمدية .

وقال سليم :

- وأنا بدورى ليس لدى مانع من أن أقدم استقالتى ، مادمت سأظل احتفظ بالسلاح .

نظر إلى الباشا . لم يشر أحد إلى موضوع السلاح . وأومأ المحامى إلى الباشا بهزة من كتفيه كى يوافق ، فليس ذلك بالأمر الجلل .

ووافق الباشا .

جمع سليم البنادق ، واغلق عليها المخزن . ثم خرج للناس ، وقال لهم انه قد تم تسريح الخفراء . وجن جنون الاهالى من الصياح والصفير بالاستحسان . وانتحى سليم جانباً ، جلس هناك ، واخرج مسبحته من جيبه ، وراح يحرك حباتها باصابعه وقد امتقع وجهه .

وفى وقت مبكر من بعد الظهيرة ، وقفت أمام بيت روزاكيس العربة المقفلة التى يخصصها الباشا لحريمه .

ونزل هو نفسه من داخلها . وكانت هذه أول مرة تطأ قدمه بيت روزاكيس .

وقال له هذا الاخير :

– تبدو الاحوال مدلهة ، اليس كذلك ؟

وأجاب الباشا قائلاً :

– ليس إلى هذا الحد ! ولكن الحرص على أى حال واجب . . ضع العائلة فى العربة . وخذوا معكم بعض الحاجيات . يجب أن تدركوا الدير قبل غروب الشمس ، حتى لاتجدوا ابوابه موصدة . وهناك سوف تكونون كما فى قلعة حصينة . وسأعطيكم أربعة من رجالى على صهوة جيادهم ، ليصحبوكم إلى هناك .

– وماذا عن محلج القطن ؟ وكل العناء الذى بذلته من أجله ؟

– ومنذا الذى سيمسه بسوء . إنه فى دائرة نفوذى . وإنى ابعث بكم إلى الدير حتى لاتصاب حريمك بالذعر . كما يمكن أن تشح المواد الغذائية لفترة من الوقت .

افرغ روزاكيس محتويات خزانته فى حقيبة . وأخذ معه الاوراق والنقود ، والامانات ، والمجوهرات . كما أخذ لوازمهم من الثياب ، وشحنها هى وأهل بيته فى العربة . وعندما كان يهم بالرحيل ، ويركب بدوره العربة . سألنى :

– وأنت ، يا بوليفيو ، ماذا ستفعل ؟

قلت :

– أنا لا أستطيع أن أرحل . لن اترك «خاريكليا» وحدها .

– كما تشاء . مادام الأمر كذلك . خذ البنادق وضعها فى دولابك . . خذ أيضاً الخراطيش . لاتعرف ماذا يمكن أن يحدث .

كان لدينا أربع بنادق .، نعطيها للحراس فى الغروب ، ونأخذها منهم فى الصباح ، وذلك لاستخدامها فى حراسة محلج الاقطان .

وفى اليوم التالى رحل مدير الورشة اليونانى إلى الدير على ظهر حمار . ومعه رحل سائر يونانيىٍ ديروط . ظللت وحيداً . ثم جاءنى عرفة يتصبب عرقاً ، وإن كان بادى السرور .

وقال لى :

– انشأنا نقابة يا أسطى بوليفيو ، تعال انضم الينا فقد ننتخبك رئيساً !

– أى سخف هذا الذى تقول ؟ أى نقابة هذه ؟ ومن أنتم ؟

جلس عرفة على سريرى ، ووضع يديه على ركبتيه ، وقال :

– شكلنا جماعة . سنكافح من أجل حقوق العمال . حقوقنا نحن جميعاً : الحدادون ، والنجارون ، والخياطون ، وصانعو الاحذية . . . كل من يعمل ويعيش من أجره اليومى .

وسألته :

– وماذا عن عمال الماكينات ؟

اجاب قائلاً :

– كلا ، انهم فلاحون وليسوا عمالاً . هؤلاء شيء آخر . ثم أين هم ؟ تبعثروا . يجرون وراء الباشا ويهتفون له .

وقلت له :

– دعنى لحالى . الا ترانى محموماً ، وحرارتى مرتفعة ؟ أعطنى مهلة أفكر فى الأمر .

والواقع ، أننى لم أكن فى حالة صحية طيبة . منذ يومين ، وربما منذ اليوم الذى أمطرت فيه ديروط ، امتلأ جسمى بالبقع الحمراء .

ولم أكن أعرف كيف غرقت فى النوم . وفى الصباح ، استيقظت على صيحات وطلقات بنادق آتية من ناحية البندر . جرجرت جسمى ، وذهبت إلى الشباك . لم أتبين شيئاً ، ولكن هناك تحت ، سمعت امرأتين تتحادثان . فأرهفت السمع . سألت احداهما الأخرى :

– أين تذهبين بهذا القمح الذى تضعينه فى حجرك ؟

واجابت الأخرى :

– الناس الآن احرار . يا اختاه . اسرعى لتأخذى منه أنت أيضاً ، قبل أن يفرغ .

كان الاهالى قد كسروا ابواب البنك ، وراحوا يوزعون فيما بينهم الحاصلات . كل يأخذ قدر ما وسعه .

عدت وهويت راقداً على فراشى . وعندما استيقظت وجدت المرأة التى تأتى لتغسل لنا الثياب واقفة عند رأسى . كان عرفة قد ارسلها لترعى شئونى . ولا أعرف ماذا قلت لها . كانت الحمى تلهب جسمى . خيل إلى أنهم قد أعادوا تشغيل الورشة .

رُحت فى غيبوبة من جديد . وعندما استيقظت كان الوقت ليلاً . كان مصباحى يتدلى من السقف موقداً ، وقد انحنى شخص يطل على بعمامة بيضاء ، وصدرية سوداء . كان غزير شعر الصدر وشاربه وخط المشيب بعض شعيراته ، وبشرته حفلت بالتجاعيد . أما أهدابه فلم يلحقها التغيير . واستردت فهمى .

قلت دامع العينين :

– أنت تحيا يا نور ، كل هذه السنين . .

هممت بالنهوض ، فلم استطع .

وقال لى :

– كنت أحيا هنا ، قريباً منك . وباختصار ، كان عرفة يخبئنى فى بيته .

– وقلت يا لك من رجل شجاع . . وكيف حال نمنم ؟

بللت الدموع اهدابه الطويلة . وقال :

– يخيل إلى أننى اسمع سعاداً تسألنى عنه . انه بخير . يكبر كل يوم . ارسلته إلى بعض اصدقائى ، بعيداً عن هنا

ليختبيء عندهم . ان الدنيا مليئة بالناس الطيبين . وهذا ما ادركته بعد كل هذه السنين .

تناول منديلاً . غمسة في الخل . ووضعه على جبيني . اطبقت عيني . أحسست بالتحسن . ثم فتحتهما من جديد .

قال لي :

– أنت لم تتعرف على المرحومة ، أما هي فكانت تعرفك حق المعرفة . في شبابها كانت تجلب قمح بيتهم وكنت تطحنه لهم . كانت تقول أنك رجل طيب ، لأنك على حد قولها لم تكن تعاكس النساء اللاتي كن يحضرن إلى وابور الطحين ، مثلما كان يفعل روزاكيس الذي كان أيضاً رجلاً متزوجاً وله أولاد .

وقلت :

– لهذا السبب ، وصفه هيجلار بالحلوف .

– أما هي فكانت تصفه بالثعلب .

وأومأت اليه بنظرة من عيني إلى ناحية الترعة والمحطة ، بالخارج :

– ماذا يجري هناك ؟

وقال لي :

– لاشيء . انها قضية خاسرة . البنادق قليلة ، وهي في أيدي الباشوات . سيتركون الشعب تتقطع انفاسه ثم يعودون

يمتصون دمه .

– من تقصد بالشعب ؟ الفلاحين ؟

– هؤلاء بالأخص اقصد . أن حماى جاد الرب . .

وقاطعته قائلاً :

– تغيرت ، على ما أرى . .

– تعلمت الكثير . سنوات وسنوات أهيم الآن بالبلاد . وأول درس تعلمته كان من الباشا عندما ذهبت اشكو اليه العمدة واعوانه . هل تريد أن تتعلم الكثير ؟ تعلم اذن أن تسمع . ماذا يقول الواحد وماذا يقول الآخر . ماذا يقول عرفة ، وماذا كان يقول له رئيسه الايطالى .

أخذ بطانية من الصوف ، ولفنى بها لفة محكمة . وقال لى :

– اسمع . أنت مصاب بالتيفوئيد . سأرسلك بمركب صغير إلى مستشفى أسيوط . لو بقيت هنا ستموت .

اظلمت الدنيا فى عينى من جديد . دس ذراعيه من تحتى ، وأخذنى فى حضنه مثل طفل صغير . كم وخط المشيب شعره . قلت له :

– «خاريكليا» . . .

وقال لى :

– لا تشغل بالك بها سوف اهتم بأمرها . وبينما كان يجتاز

بى الباب لمحت عيناى الدولاب ، فقلت له :

- نور . هناك ، فى الدولاب أربع بنادق بخراطيشها ربما احتاجت الظروف اليها .

دس انفه تحت ذقنى ، وطبع قبلة على رقبتى .

- يا أخى الحبيب . . .

ثم غاضت الدنيا من حولى . صارعت الموت عشرين يوماً . وعندما بدأت أعى ما يجرى حولى من جديد ، كانت قد حدثت أمور جسام هناك فى ديروط .

الفصل الثالث عشر

عرف فى أسيوط أن المهندس الذى يعمل مع روزاكيس يرقد مريضاً بالمستشفى . جاءنى هيجلار ذات يوم . وقال لى :

– أفلت مـن الموت باعجوبة ، يا بوليفيو . هيا ، استرد عافيتك ، كى نأخذك إلى «خاريكليا» .

وسألته :

– ماذا يجرى هناك ؟

فأجاب :

– هـدوء . وضع الانجليز فى الابراهيمية أمام الطاحونة يختاً ، واقاموا هناك نادياً للضباط ، يحيون سهرات راقصة فيه كل ليلة ، وأرسل اليهم روزاكيس البيانو من بيته ، ولاتكف ابنتاه عن الرقص مع الجميع .

بدا لى الأمر كأكذوبة . أهو سكران هيجلار هذا ؟

وسألته :

– ومن فى يده مقاليد الأمور الآن ؟

– ومن غير الكمانى وإتباعه ؟

أما الباشا ، وزين ، والمحامى ، وشكسبير ، فهم جيرانك هنا مكبلين بالاغلال فى سجن أسيوط .

كنا نطلق اسم شكسبير على أحد ملاك الأرض الزراعية ، ولم يكن من كبارهم على أى حال ، تقع ارضه فيما بعد الدلجاوى . وكان قد درس فى إحدى كليات الآداب الانجليزية ، وكان مغرماً بأعمال شكسبير ، وعنها يتحدث على الدوام .

سألت :

– وعرفة ؟

– اقلت بجلده . هو فى الورشة كما كان ، وكما كنت تعرفه .

بدأت استجمع شجاعتى . ولكننى كنت خائفاً من أن أوجه اليه السؤال الذى يتردد فى اعماقى . ثم قلت :

– وهل سمعت شيئاً عن نور ؟

– بومبة ؟ لقد شنقوه . حكم الانجليز على خمسين من اولئك الكلاب . صدرت عليهم أحكام عسكرية بالاعدام .

قلت :

– لايمكن ! لا يمكن !

انكفأت على وسادتى . وسالت من عينى الدموع . كنت شديد الهزال .

وبعد اسبوع جاءنى هيجلار من جديد ، وأخذنى من المستشفى ، وانصرفنا . وقد استقبلونى فى ديروط بفرح كبير . واستقبلنى روزاكيس بآية من الكتاب المقدس عن قيامة لعازر من

الآموات . أما انا ، فقد التصقت "بخاريكيا" وبقيت الى جوارها ، وكنت أتوق أن أبقى وحيداً مع عرفة حتى اتحدث اليه . ولكنه كان قد تغيّر . كان يتحاشانى . وصار يلزم الصمت . اضحى شديد الانطواء علـى نفسه ، ولا يفتح فمه بكلمة . تزوغ نظراته على الدوام ، وقد امتلأت توجساً وخوفاً . ينكب على العمل منذ شروق الشمس إلى مغيبها ، ولا يرفع رأسه لالتقاط أنفاســه طوال النهار . وعندما توجهت لمكالمته ذات مرة انتابته رجفة ، وابتدرنى قائلاً «أنس كل هذا . لاتبدأ من جديد ! انهم يراقبوننا ! »

كانت قد بقيت أقطان كثيرة دون حلج فأخذنا نعمل ساعات اضافية ونسهر ليلاً . وقد جلبت حاشيتى إلى القاعة التى بها «خاريكليا» ، وكنت أنام وأسمع فى نومى دقاتها الرتيبة . وذات ليلة ، جاء عرفة وايقظنى ، سائلاً «هل لديك كونياك ؟ » احضرت له الزجاجة ، فشرب ، وزايله الخوف ، وانحلت عقدة لسانه .

فى ذات الليلة التى زجوا به الى المركب ، نزل زين من سرايه الصغيرة ، ممتطيا جواده ، ومعه قرابة ثلاثين من رجاله على صهوة جيادهم مسلحين ، وقد سار من ورائهم جمع من العاطلين ، واللصوص ، والقتلة ، والجياع ، والهاربين من تنفيذ أحكام السجن عليهم . اجتازوا الجسور مكفهرى الوجوه مضمرين الشر ، ودخلوا البندر ، واعملوا التخريب والتكسير . فتحوا محال البقالة ،

والمانيفاتوره ، والمقاهى ، وغيرها ، ونهبوا ما بها من بضاعة وأثاث ، واشعلوا فيها النيران . واختلفوا بعد اقتسام الاسلاب ، ودبت بينهم المشاجرات . وكاد سوق المدينة أن يحترق عن بكرة أبيه . وهرع المراكبية وصيادوا الاسماك ، وجلبوا الماء من النوبارية ، واطفئوا النيران ، قبل أن تأتى على المدينة كلها .

وفى الصباح ، ذهب أصحاب المحلات إلى الباشا لمقابلته فتركهم ينتظرون طويلاً ، لأنه كان فى اجتماع . ثم خرج اليهم وقال : «ماذا تريدون أن أفعل ؟ أن اقاتل مـع أخى ؟ الشعب جائع ، يجب أن تفهموا ذلك ، وهذا مصدر الشغب . من منكم يريد الأمان ، فلينقل محله إلى هذا الجانب من الابراهيمية غرباً . سأعطيكم لأجل هذا الغرض زاوية الدلجاوى» تلك الأرض المتنازع عليها ، افهمت – «تبنون فيها محلاتكم وتقيمون السوق عليها . ونحن ، كيف اشرح لكم ، لسنا مثل عائلة كمانى نأخذ منكم اتاوات كى نقوم بحراسة متعلقاتكم . نحن اناس لدينا ما يكفينا . كما أن لدينا اهتمامات أكثر جدية»

خرج الناس من عند الباشا ، والتقوا بسليم . قالوا له «على أى حال ، طوال هذه السنين كنا ندفع لك لحراستنا دون أن تكون ثمة حاجـة إلى ذلك . والآن . عندما تأتى الساعة تتركنا بلا حماية» .

فقال لهم :

– وماذا استطيع أن أفعل لكم ؟ إننى مستقيل .

– لديك البنادق . اعطها لنا .

وسأل سليم بخبث :

– وهل سترفعون السلاح على الباشا ؟

ولم يستطيعوا الاجابة . ولكن البعض استطرد قائلاً :

– لن نستخدمها إلاّ لتأمين انفسنا .

على أن الكثيرين ، كانوا اناساً مسالمين ، ينعمون بالحياة فى الحرير والعطور ، وقد خافوا من اراقة الدماء ، فقرروا أن يحضروا مصابيح من بيوتهم ، ويسهر كل منهم أمام متجره . ولكن اتباع زين عادوا بالليل واعملوا التخريب واشعال الحرائق . وعندئذ خرج بومبة من مكمنه ، ويصحبته قرابة أربعين رجلاً من المراكبية والعمال والتجار الجسورين ، والفلاحين من جيران جاد الرب وشكسبير . وقد كان بحوزة نور ثلاث بنادق خاصة به ، بالاضافة إلى بنادق روزاكيس الأربعة . وكان مجموع ما لدى هذا الجمع من بنادق عشر بنادق . كما تسلح بقية الذين خرجوا للتصدى للمعتدين بالمدى والفؤوس والسكاكين ، أما عرفة فقد انفرد بتشغيل الورشة ، وأى معدن كانت تطوله يداه كان يحوله إلى سلاح .

اطلق اتباع زين بعض الأعيرة فى الهواء أول الأمر ثم انسحبوا إلى الجسور ورافقهم زين نفسه . وعندما رأوا التغير الذى طرأ بدخول نور الدين ورجاله الاشداء إلى الساحة تراجعوا ، تفرقوا ، ثم اختفوا . ولم ينكص البعض عن الذهاب إلى سليم ، هرعوا إلى منزله ، وايقظوه من النوم .

قال لبومبة :

– ايها الكلب . لم يخب ظنى انك لازلت على قيد الحياة . أين كنت تختفى طوال هذا الوقت ؟

وانبرى له بومبة قائلاً :

– كنت أظنك أكثر ذكاءً ، يا سليم . لماذا رحت تحسب ساعات الذهاب والإياب عبر الصحراء ؟ الم تكن تعرف أن الجياد تجيد العوم ؟ . ولم أكن مجنوناً حتى أمر بأسيوط عارياً ، فاستدرت ونزلت بجوادى إلى الماء ، واجتزنا الترعة وخرجت من الناحية الخلفية لقيلاً «أبو سنة» . وكنت سأحضر لك رأسه ، ولكن المياه جرفته من بين يدى . كنت سألقيه هنا أمامك ، حتى تعرف ماذا يعنى أن تكون رجلاً .

لمعت عينا سليم ، وقال :

– تتباهى بماليس فيك . قل الآن ، لماذا ايقظتنى ؟

– البنادق !

أخرج سليم المفاتيح واعطاها له وقال :

- كـل هذه الجسارة ، حتى تصبح من اتباع ذى الفك الملتوى ، زين ، بالخسارة !

وقال له نور دون أن يبدو عليه الغضب :

- أنت واهم ، نحن نريد البنادق لاستخدامها ضد الانجليز . إن وابور البحر الذى هدم الكوم سوف يعود !

وهكذا أنشىء الحرس المدنى . وتولى المحامى القبطى جرجس حنا أمور التنظيم ، وسارت الأمور على ما يرام . وعينوا نوراً رئيسا للحراس . ثم انعقد اجتماع فى فناء الباشا . واتضح سريعاً أن الأعيان وكبار الملاك واواسطهم والغالبية العظمى من صغار المزارعين كانوا فى صفه . وهذا مافعله أيضاً التجار والسماسرة ، لأن اتباع العمدة لم يحضر منهم أحد ، وبقوا خارج اللعبة ، وهكذا فإن أصحاب المتاجر والورش الصغيرة وصغار المزارعين اختاروا بومبة . وكان فى صفه بطبيعة الحال المراكبية وأصحاب عربات النقل ، وعمال عرفة ، وإن كانوا لم يحضروا جميعا وارسلوا مندوباً عنهم . وقد كان الموقف الذى وقفه شكسبير مثار الاعجاب ، فعلى الرغم أنه كان اقرب إلى كبار الملاك الا أنه أيد نوراً . تبادل الحاضرون القسم بأن يتضافروا فى الجهاد من أجل استقلال الوطن . وخطب جرجس حنا فى الحاضرين ، و

«من الآن فصاعدا ، سوف تسير الأمور على أفضل ما يرام» وطلب نور أن تحصى البنادق لكى يعرفوا أين يقفون . نهض زين وقال «الحرب مهمتى أنا . أما أنت فعليك السهر على سلامة الاستحكامات . ونريدكم أن تسلمونا البنادق !» كاد أن يتبدد الوفاق . ونهض شكسبير ، وقال بعض الكلمات المتصفة بالحكمة ، وانفض الاجتماع ، وقد تظاهر الباشا طوال الوقت بأنه لايعرف بومبة ، ولكنه كان يرمقه فى الخفاء ببعض النظرات التى تقطر سماً .

وفى اليوم التالى ، جاء نفر من صغار المزارعين لمقابلة الباشا وسألوه :

– اصحيح ما دأب جرجس حنا المحامى على ترديده ؟

– وماذا يقول ؟

– يقول أنه ليس صحيحاً أن الضرائب قد الغيت ، وانما سندفعها الآن لجنابكم . هل هذا صحيح ؟

ارسلوا واستدعوا المحامى . لم يكن قد قال شيئاً من هذا القبيل . بل أنه على المقهى اثناء الثرثرة مع بعض الموجودين قال : «الآن عندما يدخل الباشا الوزارة لن تضيع أموال الشعب هدراً ، ولن تذهب إلى جيوب الأجانب»

وأوضحوا للفلاحين ما المقصود بذلك ، فقال هؤلاء «نفس

الشىء سيحدث . سندفع اذن الضرائب ، فما التغيير اذن ؟ »

وفى المساء ، كاد الشجار ينشب بين نور وعرفة على المقهى ، وكان كثيرون ممن تعطلت اعمالهم مجتمعين هناك . وقال عرفة :

– ما ان يسترد بوليفيو عافيته ، سترسل اليه كى يحضر . كما سنحضر روزاكيس من الدير . لقد هدأت الاحوال ، الآن ، وآن الآوان أن يفرغ المحلج من حلج محصول هذا العام . كى يحصل الناس بعض الأجر يقيمون به أودهم .

وقال له نور :

– رويدك ، رويدك ، وهل انتهت الأحداث بعد ، لازال امامنا الكثير . ثم لماذا تتعجل العودة إلى عبودية العمل ؟

وقال عرفة :

– آه ، كلا . سوف نطالب بأجر اثنتى عشرة ساعة يومياً . انتهى وقت الأكاذيب .

وسأل نور :

– اثنتى عشرة ساعة يومياً ، حتى للفعلة واجراء الأرض ؟

وقال المراكبية الحاضرون :

– هذا وضع طبيعى .

واستطرد عرفة يقول :

– علينا ألا نخلط بين الأمور . إنى أتكلم عن العمال . أما

هؤلاء الآخرون فهم فلاحون وليقرروا هم أمورهم فيما بينهم .

واستشاط نور غضباً ، وقال :

– ما هذا الذى تقول ؟ يسعى الباشوات للتفرقة بيننا . ولكن هؤلاء يتحدثون من منطلق مصالحهم . أما الآن ، فقد طلع علينا عرفة أيضاً . يا رجل ، لو لم نتضافر ونتحد ضد روزاكيس ضد من نتحد إذن ؟

وامسك نور أحد صانعى الاقفاص من جلبابه ، كان يجلس ويستمع إلى كلامهم دون أن يدرك تماماً أبعاد ما يقولون . وقال :

– ضد السيد الذى يعمل لحسابه هذا الأجير ؟ اسألوا منذا الذى بدلاً من جلباب واحد يملك جلبابين ؟ لا هو ، ولا سيده يملك جلبابين !

وجد الآخرون أن نوراً كان على حق . «حقاً على النقابة أن تجاهد ، ولكن ضد من تجاهد ؟ » كانت هذه أول مرة يدور بخلدهم مثل هذا السؤال . وقد أحس عرفة بالحرج ، لأنه وجد نفسه وحيداً .

التفت وقال لنور :

– بالطبع ، منذ أن انصلحت أمورك مع حميك ، تنحاز على الدوام إلى صفوف الفلاحين .

حط الوجوم على الجميع وابتلعوا لعابهم . رفع نور كفيه

الكبيرين عاليا ، لكنه سارع إلى خفضهما إلى جنبيه . وكان الآخرون ينتظرون أن يسمعوا ماذا سوف يقول . دس وجهه أسفل وجه عرفة . وقال مقلداً إياه :

– ايه ، دنيا !

لم يكن ذلك على الاطلاق متوقعاً . . . فانفجر الجميع فى الضحك ، لاتقان محاكاة نور للهجة عرفة وقوله المألوف . ضحك عرفة بدوره . وضحك نور أيضاً لنجاحه فى ذلك .

الفصل الرابع عشر

مضت الأيام على هذا المنوال ، غارقة فى الانفعال والبطالة ، وعض الجوع بطون الفقراء . وعند خزان أسيوط أخذ منسوب المياه ينخفض . ومضت المياه فى ترعة الابراهيمية تتناقص على غير العادة . واضحت المدينة تعيش منعزلة عن العالم ، بلا قطارات ، ولا تلغراف . وكان الباشا يذيع من وقت لآخر خبراً ، ترى من كان يبلغه به ؟ «اتصلنا بالقاهرة . الانجليز ينقلون عتادهم إلى الاسكندرية . إنهم يرحلون ! » وتتعالى الهتافات ، وتنهال الطلقات فى الهواء .

اذن ، فالأمور تسير على مايرام . . الا أنه ذات مساءً نادوا على الناس أن تجتمع فى الفناء ، وقد بدت فى نظرات الباشا امارات الانشغال والقلق . كان يمسك فى يده مسبحة من مكة ، ذات حبات من العاج مثبته بمسامير من الفضة ، وكانت الحبات تفلت من أصابعه فيحدث ارتطامها أصواتا ملحوظة .

قال «ايها المواطنون ، أيها المواطنون» ثم توقف واومأ إلى المحامى ليكمل الخطاب . فأخذ هذا الأخير يقول :

- الكلام الكثير مورث للفقر . لقد حانت ساعة العمل . وقد ابلغنا رفاقنا بأسيوط أن الانجليز انزلوا باخرة نيلية قادمة من

السودان محملة بالجند . بل أنها قد تحركت فعلاً نحونا . وفى صباح الغد ستكون قد وصلت إلى النوبارية . وربما مضت نازلة إلى أبعد من هنا ، وربما أيضاً توقفت عندنا . فلو توقفت عندنا فسنحاربها ، وسننتصر !

هللت الجموع وكبرت ، وراح الخفراء يطلقون أعيرتهم فى الهواء تباعاً واقتحم زين الجموع ووقف وسطهم واندفع يتكلم ، وقد سال اللعاب من فمه ذى الفك المعوج .

- لا تتركوها تمر ! فلنمسك بهم . كم يكون عددهم ؟ مائة ، مائتان ؟ نحن الوف مؤلفة .

رفع شكسبير يديه ، وطلب الكلمة . قال :

- فلنلزم الهدوء ، وأرجو أن يعميهم الله فلا يرسون عندنا . فلسنا مستعدين للقتال .

ثارت ثائرة البدو ، وإنقضوا على الرجل كى يفتكوا به . وراحوا ينعتونه بالانجليزى ، الجبان الخائن ، فتدخل نور وفض الاشباك بينهم .

ابتدره أحدهم قائلاً :

- سلام عليك يا بومبة . فلتقل لنا كيف نبيد الانجليز ذوى السراويل الحمراء !

وتكلم نور بمنتهى التعقل :

– نرسل بعض الرجال لمراقبتهم من بعيد دون استخدام السلاح . سوف يراقبون فقط ويخطروننا بما يرون . أما نحن فسوف نتحصن جيداً داخل المدينة . وسنحاربهم من النوافذ . لو كانوا مائه أو مائتين سوف نقضى عليهم واحداً تلو الآخر . ارهف الباشا السمع ، وانصت بانتباه . ولكن البدو لم يوافقوا على الاطلاق . ودفعوا زيناً للكلام من جديد ، فقال :

– هذه مكيدة . سوف يمسكون بنا مثل جرذانٍ فى المصيدة . لايجب أن نترك أحداً منهم يطأ أرضنا . لن تكون حرباً تلك التى ستجرى فى الحوارى . لن تتصف بالرجولة !

وقال نور الذى ادرك ما يقال :

– حسنا . بامكان الفرسان أن يقطعوا على الانجليز خط الرجعة بعد نزولهم من الباخرة .

وصاح الآخرون :

– كلا ، كلا ، فليصطف حملة البنادق جميعاً بطول النهر ، حتى لانمكنهم من الخروج .

وطلب أحد تجار المانيفاتورة الكلمة . وقال :

– حتى هذه اللحظة كنت أعتبر بومبة رجلاً منا . أما الآن فقد ظهر على حقيقته ، مجرد مراكبى ، انظروا اليه . ولهذا فقد عاد يرتدى السروال الفضفاض . كل شىء ، من بيت ، وعتاد وبضاعة

هى بالنسبة له على خشبة تطفو على الماء ، على مركب ولاشىء غير ذلك ، ولهذا فهو يذهب بنا هناك ، اينما هبت الريح . لا يكترث بسرقة ، ولايعير التفاتا لحريق . أما نحن ، فلو إننا أخذنا بما يقوله لنا ، فإننا سنجعل النار تشتعل فينا ، وتحرق كل ما عندنا . لو انزل الانجليز مدفعاً واحداً إلى هنا ، انمحت ديروط كلها ! أين الصواب فيما يقال ؟

ادخلت الاشارة إلى ذلك المدفع الرعب فى القلوب فرجحت كفة الميزان ناحية زين . واتخذ الباشا القرار . وقال :

– دعكم مـن هـذه الحماقات . اولئك الذين يفهمون فى الحروب ، هم الذين سيتولون مقاليد الأمور .

وقال نور :

– كله من عند الله .

وقبل أن تشرق الشمس ، فى صبيحة اليوم التالى ، أخذ أهل القرى ينزلون ناحية الشط افواجاً . ارتدى الفلاحون أفضل ثيابهم . وامسكوا بفوانيس مزركشة الألوان ، كما لو كانوا فى رمضان . وفى المقدمة مضت مواكب الدراويش باعلامهم مطوية فى انتظار طلوع النهار . كما لاحت أيضا اعلام حمراء بثلاثة أهلة . وتعالت دقات الطبول سريعة تارة وبطيئة تارة أخرى حتى تنتظم خطوات المشاة . أما الناى فكان يعزف لحنه الحزين . وكان

البدو وفرسان الباشا يشقون الحقول مثل ريح عاصفة ماضين من قرية إلى أخرى . يوقظون الناس من سباتهم ، ويسكتونهم بطلقات نارية فى الهواء ، ثم يمضون منصرفين مطلقين اصوات منكرة . كانوا يدفعون الجموع فى اتجاه الكوبرى . وكانت هذه الجموع قرويين أخذوا معهم أولادهم حتى لايفوتهم الحدث الكبير . لم تكن معهم بنادق ، فحملوا معهم فؤوسهم ومناجلهم ، وسكاكينهم ، ونبابيتهم ، وأى شىء طالته ايديهم من بيوتهم الفقيرة أو من مخازن الباشا العامرة . وعندما بدأت الشمس تشرق بدت النساء ايضا ، يسرن فى صحبة ازواجهن هنيهة ، ثم يتجمعن ويقفن فى الحقول . يحركن ايديهن فى حركات رتيبة وينشدن بصوت شجنى ما كان اشبه بالمراثى . وكن يبقين فى الخلف متشحات بثيابهن السوداء ، يضممن اليهن الأولاد الصغار الذين كانوا يريدون اللحاق بالمقاتلين من آبائهم .

اكتظت الكبارى والجسور بالناس ، وتعالى صخبهم مثل طنين النحل . وامتطى زين جواداً اسمر اللون رافعا يده مشيراً بأصبعه إلى مجرى النهر ، فبدا مثل تمثال ابراهيم باشا المقام بالقاهرة . أما حملة بنادق الباشا فكانوا يمضون قدماً فى الصف الأول .

ذهب شكسبير إلى بيت عرفة ، وقابل بومبة . وجلسوا يناقشون الأمور بهدوء . أن بنادق الصيد لاتصلح للقتال . ولم يكن

هناك وقت لصنع الرصاص . بل ولا يعرف أحد كيف يصنع . اتفقوا على أن يبقى شكسبير بالمدينة مع عرفة ، لملاقاة الانجليز متى اتوا اليها . ببنادق ثلاثة من متعلقات شكسبير وأربعة أخرى ملك روزاكيس . أى كان معهما سبعة بنادق بالاضافة إلى بندقية ثامنة كانت لدى صاحب محل أحذية ولايعلم أحد من أين أتى بها . وكان زين قد سحب أربعة بنادق من الاثنتى عشرة بندقية التى كانت مع جماعة نور . وبقيت البنادق العشـرون التى كـانت مع أعوان العمدة ، كلها بين أيدى رجالٍ لايرهبون الخطر . وأخذهم نور معه ورحلوا .

كانت الشمس عمودية على الكوم ، عندما وصلت الباخرة إلى الترعة فى صمت . ولم يكن لهذه الباخرة عجلات ولا اسوار ، بل كان لها مجرد مدخنة . أما بقية المساحة فكانت مغطاة بالألواح الحديديةالمسطحة . وقفت الباخرة هناك منطوية على نفسها وراحت تنظر إلى الناس من خلال كواتها الصغيرة . وبدت فى مجموعها شيئاً شرساً للغاية .

وتزايد اقبال الجموع ، وكانوا يخترقون الحقول حتى يدركوا ما سوف يحدث . ومن بعيد فى المؤخرة بدا آخرون كثيرون قادمون من طريق النوبارية . وتأخر زين . نشـر الدراويش اعلامهم ، وأخذوا يكبرون ببطء . ثم انخرطوا فى تكبير سريع ، وبدت

أصواتهم وكأنها تدخل الأمان فى القلوب . وأخذ البدو يروحون ويجيئون على ظهور جيادهم ، يجرون بسرعة وعنف ، ويوقعون فى غدوهم ورواحهم بعض الناس ارضا . يهجمون ويخوضون فى الماء ثم بغتة يقفلون راجعين .

انسحب نور ورجاله ناحية الجنوب حيث عثروا على خندق صغير ، فأمرهم بالتجمع والاختباء فيه . وقال لهم «لاتبددوا رصاصكم ، عندما ترونهم ينزلون إلى القوارب ، انتظروا قليلاً ، ثم صوبوا بنادقكم نحوهم ، واضربوا فى المليان» ولكن القوارب لم تظهر .

نفد صبر الاهالى ، من طول التأهب والانتظار ، ولاقائمة لزين بينهم . وأخذ البعض يطلق رصاصات متفرقة نحو الباخرة . وكلما أصابت بعض طلقات البدو سطح الباخرة الحديدى ، أحدثت اصواتاً كضربات السياط فكانت الجموع تنخرط فى التصفيق . وفجأة مرّ فوق رؤوسهم سرب مندفع من الطيور قادمة من الجنوب هاربة من ارتفاع حرارة الجو هناك ، قاصدة أجواء غربية رطبة . وصوب واحد بندقيته وأطلق رصاصة أصابت طائراً من السمان ، فوقع فى لجة الماء . وعند مرور السرب الثالث أطلق آخرون رصاصهم على السمان ، فوقع بعض منه بين الناس . وتشاجروا فيما بينهم وتضاربوا للظفر بالصيد .

وخاض البعض الماء حتى ركبتيه ، وتوغل البعض حتى الوسط ، ونفد صبر البعض فخلعوا ثيابهم ، وأمسكوا بسكين بين أسنانهم . وراحوا يسبِّحون . وقع بصر نور عليهم ، هز رأسه ، ثم لوح بيده ، وقال لرجاله : «لا شأن لكم بهم . انتظروا»

وصل إلى المكان جمع آخر ، وقال أحدهم أن زيناً معهم وظهوره وشيك . وسمع صوت يقول «فلنستول عليها قبل أن تأتى الينا» خاض الدراويش فى الماء ، ومن ورائهم هجمت الجموع . وبعد بضعة أمتار توقفوا عن المسير فى اللجة وقد ابتلت ثيابهم ، ومن بعدهم هرع آخرون ، وهؤلاء وقفوا صفوفاً نزلت إلى المـاء من ورائهم ، وقد امسكوا بسلاحهم رافعين اياه إلى أعلى .

وعندئذ كشفت الرشاشات عن فوهاتها من مكامنها الحصنية بالباخرة . تتابعت منها الطلقات سريعة وأمطرت الناس بوابل من الرصاص ، فاطلقوا صرخة اندهاش ، وامتلأ النيل بالجثث والمصابين . وندت ممن فى المقدمة صيحات تقول «انها تمطر ناراً» وشرعوا فى التقهقر إلى الوراء . اختلطوا بالآخرين ودب بينهم وهـم فى الماء هرج ، وراح الرصاص يحصدهم حصداً .

انتاب الناس رعب وهلع وانكمشوا متراجعين ، ثم اطلقوا لسيقانهم العنان . وصاحوا مبهورى الانفاس «ابتعدوا ، يتساقط علينا الرصاص ، ابتعدوا ! » . وكانوا يخلعون جلاليبهم المبتلة وهم

يجرون حتى لاتعوقهم عن الحركة ، بينما كان من طريق النوبارية لازال يفد آخرون ، فسرت موجة الرعب فيهم بدورهم . وبعد قليل . لم يبق فى المكان سوى الموتى والجرحى . وراح التيار يقذف إلى الشط جثث الضحايا . ولم يبق سوى البعض على صهوة جواده ، ينظرون باحتقار خلفهم إلى الناحية التى هربت منها الجموع . ولكن مالبث أن صوب الجنود من الباخرة الرصاص عليهم ، واردوهم واحداً واحداً صرعى من على جيادهم . ومن بقوا منهم على قيد الحياة جمعوا الاسلحة ثم قفزوا على ما بقى صاحياً من الجياد ، وأطلقوا صيحة شقت سكون المكان ، ومضوا مبتعدين .

خيم الصمت ، وفتحت الباخرة بواباتها الحديدية فى صخب . وظهرت القوارب مليئة بالجنود ، وانزلت فى بطءٍ شديد إلى الماء ببكرات كبيرة . وقال نور لرجاله «انتظروا . اتركوهم يقتربون» وعندما وصل القارب الأول إلى مسافة خمسين متراً من الشط قال نور «والآن ، اضربوا فى المليان» وانطلقت البنادق كلها فى آن واحد . ثم عمرت بالرصاص من جديد . وانطلقت من جديد . سمعوا شيئاً يندفع نحوهم من فوق رؤوسهم مصفراً . ورأوا جسماً ملتهباً . وقد صمت آذانهم من شدة الدوى . غمرهم الوحل المتطاير نحوهم . وضعوا الرصاص فى بنادقهم مرة أخرى وأطلقوها . سقطت شظايا القنبلة الثانية فى خندقهم . قال نور «أنه مدفع .

كان تاجر المانيفاتورة على حق . تفرقوا» ثم صاح فيمن بقى أحياء من رجاله «اخرجوا ، من هنا ، ولكن متفرقين ! » وعادت القوارب إلى الباخرة ، ولكن القذائف مضت تتوالى .

وصاح نور :

- انسحبوا . خذوا بنادقكم ، وشقوا طريقكم عبر الحقول ، تراجعوا خفيضى الرؤوس !

ومن الباخرة ، مضى الآخرون يطلقون عليهم القذائف ، ولم يصل النوبارية من مجموعة نور سوى ستة . القوا ببنادقهم فى الترعة ، وسبحوا إلى الضفة الأخرى فى نواحى جاد الرب .

ظل عرفة وشكسبير فى المدينة ينتظران . وعندما رأيا الجموع تصل مثل فيضان ، وتمضى فى اتجاه اراضى الباشا ، فهما حقيقة الأمر . كان زين لازال مختفياً ، وكذلك كـان الباشا بدوره . اما جرجس حنا فانه فقد طربوشه ونظارته فى الزحام . كان يشد شعره الأحمر ، ويبسط ذراعيه مثل المصلوب . وكان يبكى .

لم يعرف أحد ماذا حدث لنور . وقال شكسبير «سأذهب إلى الضيعة لأخبىء البنادق» وتناول عرفة جوالاً من الخيش ، لف فيه بنادق روزاكيس الأربعة ، وضعها على عربة يد ، ومضى يدفعها ماضياً فى أثر الجموع التى راحت تجتاز الجسور بكثافة وقد

علاها الوجوم والصمت . مروا أمام المحلج ، ونكسوا الرؤوس وما كانوا يقفون قط ليلتفتوا وراءهم كى يروا ما يجرى هناك . أما عرفة فقد وضع البنادق فى الدولاب ، وجلس ينتظر .

وخرج اعوان العمدة من جحورهم ، ومضوا يجمعون السكاكين والخناجر والعصى من الشوارع . وعندما وصل الجيش ، كان عمر الثعلب يجمع مقاليد الأمور بين يديه . بالليل ، ذهب إلى قرية جاد الرب رجل من اتباع سليم ، ومعه مندوب انجليزى ، وقبضوا على بعض الرجال ، وكان منهم بومبة .

الفصل الخامس عشر

سنوات طوال لم ير أهل المنطقة صقوراً . أما الآن ، فقد كانت سماؤهم مليئة بها . تطير في دوائر على ارتفاعات عالية ، وتحوم في هدوء شديد كما في الاحلام ، فوق النهر وفوق معسكر الانجليز ، كأنها تعلمت عاداتهم . وعندما كانوا يذهبون إلى دير مواس أو منقلوط كانت تتبعهم ، وتطلق صيحاتها المزعجة التى كانت تخيف سليماً ، وتذكره بضحكات عجوز مجنونة كان يقف ساعات يراقبها ، وكانت تحتقن من جراء ذلك عيناه ، وتحمران كعيون القتلة .

وتتابعت الايام مشحونة بأحـداث أخرى . تارة ، كان الانجليز ، يهاجمون البيوت يفتشون عن الاسلحة ، وتارة كانوا يطلقون النار على الناس عند أدنى حركة . فيستبد الرعب بالفلاحين ويعمدون إلى الاختباء . أما من لم يكن يسعفهم الوقت لذلك ، فكانوا يتسلقون النخيل ، فيصوب اليهم الانجليز بنادقهم دون وازع أو ضمير ويردونهم قتلى وكأنهم يصطادون اليمام . واستمرت المذبحة أربعة أيام . وبعد ذلك ، تركوا سليما يدفن الجثث بالجملة .

واحضروا الباشا وزيناً وجرجس حنا مكبلين بالكلبشات أمام

اللجنة ، وهى اللجنة التى ورد ذكرها فى الصحف الانجليزية ، ثم نقلوهم إلى الباخرة ، حيث القوا بهم فى قبوها . وعلم شكسبير بالأحداث فتقدم وسلم نفسه وكان يتكلم الانجليزية بطلاقة ، فقبضوا عليه ، بدوره وارسلوه إلى الباخرة . ومن هناك نقلوهم جميعاً إلى سجن أسيوط لمحاكمهم .

وبعد كل هذا أنعقد اجتماع بدار العمدة كمانى . وتكلم العمدة فى الاجتماع قائلاً :

– نادانى الكولونيل . يريدنى أن أعد له كشفاً بأسماء مائة من المتسببين فى مذبحة القطار . خمسون منهم ، شيشنقون ، والخمسون الباقون سيحكم عليهم بالأشغال الشاقة . وسوف يحكمون ببراءة البعض بطبيعة الحال .

واحضروا ورقاً وقلماً ، وكلفوا أصغر الأبناء أن يكتب . وبدأوا بذكر الاسماء الكبيرة .

عاد عمر يقول :

– كلا . لقد أوضح لى الانجليزى بعض الأمور . أنهم «شخصيات سياسية» وهؤلاء لهم حساب آخر . أنه يريد اسماء أوغاد مشاغبين .

التفتت الأنظار إلى سليم . أنه يعرفهم . اخفى وجهه بيديه كى يركز ذهنه . وذكر حوالى عشرة اسماء ، ناطقاً الاسماء ببطء

وكلها لمجرمين وعاطلين . ثم توقف . لايذكر غيرهم . كانت ذاكرته لاترى فيمن حضروا الأحداث بالمحطة سوى أصحاب لمحلات .

واردف عزيز ، ورصص اسماءً واسماءً . وفجأة قال سليم :

– نور الدين لم يكن فى المحطة . لو كنت رأيته لقبضت عليه فى الحال .

تبادل أتباع العمدة النظرات . وقال له عمر :

– ماذا جرى لك ؟

وأجاب سليم بمنتهى الهدوء :

– لاشىء . . أقول لك فحسب أن بومبة لم يكن بالمحطة ولا كان أيضاً هناك عند الشط .

تبادل أهل العمدة النظرات . وخيم عليهم الصمت . ولمعت عينا عمر الثعلب خبثاً ودهاءً . وقال لمحرر الكشف :

– أكتب . . ولا تلتفت لأحد . . لدى مخطط لذلك .

بقى سليم ساكتاً . يستمع ، ويتفحص بنظراته الرسوم المشغولة على السجادة . وعندما فرغوا من اعداد الكشف قال لهم عمر :

– اخبرنى الكولونيل أيضاً أنه يجب أن يحضر محامون للدفاع عنهم ، ذراً للرماد فى العيون . وسوف ننصِّب حسن وحسنين لهذه المهمة . من لديه نقود ، فليدفع . أفهمتم ؟ ولكن

عندما يأتى دور نور سيدافعان عنه بكل ما وسعهما من جهد . سوف يطلبان شهادة روزاكيس فقد انقذ له الوابور . واننا بانقاذنا رأس بومبة من حبل المشنقة سنضمن إلى جانبنا رجال روزاكيس جميعاً وبعد ذلك سنتفرغ للباشا ، لو أفلت بجلده .

وقال سليم :

– سوف نطالب بانقاذ رأس عرفة أيضاً .

وسأل العمدة بصوت عصبى :

– وما الذى تريد رأس عرفة من أجله ؟

– أريد أن ننقذه !

وقال عمر بصوت مشوب بالسخرية :

– حسنا ، ورأس عرفة أيضاً . مادام شيخ البلد يريد ذلك . ويجب أن تعرف من الآن إنك فى القضية سوف تكون شاهد الاثبات الأول . لقد كنت موجوداً بالمحطة .

وقال سليم :

– حاضر .

وبدأ تجهيز المشانق فى فناء السجن ، وكانت الزنازين مزدحمة بالمساجين مثل سمك السردين فى العلب . وتسلق نور إلى نافذة الزنزانة يستنشق بعض الهواء النقى . وأطل على المشانق المرصوصة .

وقال لعرفة :

– ياه ، كل هذه الأشرعة ! لم أر حتى فى ميناء روض الفرج مثل هذا العدد !

ولم يجد عرفة هذا المزاح على الاطلاق ظريفاً . وكان يرتعد خوفاً .

وفى يوم الجلسة رؤى روزاكيس واقفاً بعيداً مرتدياً سترة من التيل بيضاء مكوية . فقد كان اليوم يصادف ايضاً عيداً من أعياد اليونانيين . والتفت نور إلى عرفة وقال :

– راح كل شىء هدراً . الثعلب لم يكفه أن يفترس المراكب الثلاثة . انه لن يشبع الا بافتراس انسانٍ حى .

اقشعر بدن عرفة ، وابتعد من جوار صديقه . التقت انظاره بانظار روزاكيس ، واومأ له برأسه ايماءة خفيفة وجلة . لم يستطيع عرفة أن يرفع يديه لأنهما كانا مكبلين بالأصفاد . وظل روزاكيس بلا حراك ، ينظر اليه بعينين كما لو كانتا من زجاج .

وقد حدد القضاة العسكريون دقائق لكل قضية ، وساعة للاستراحة . وفى خلال ست ساعات سيكون كل شىء قد أنتهى ، وذلك كله قبل أن تغرب الشمس . ولكنهم عندما شرعوا ينظرون القضايا نظروها بسرعة أكبر . وقف سليم مشدود القامة إلى جوار النافذة . وكان يوجه اليه الكولونيل نظرات متسائلة فكان يهز

رأسه بالأجابة .

ويصدر الحكم . «ناد المتهم التالى ! » كان سليم يقف بجوار النافذة ، ويتطلع منها عاليا إلى الصقور التى تدور وتدور فى السماء من فوقهم .

ووصلوا إلى اسم بومبة . وضع الاستاذ حسن الكمانى يده على المنضدة وأوقف آلة الاعدام الجهنمية . ونادت المحكمة روزاكيس لسماع شهادته . واحضروا له انجيلاً قبطياً ، وأقسم عليه أن يشهد بالحق ، وتأهب للادلاء بشهادته على أن يتولى مترجم الترجمة . وسأل الكولونيل السؤال المعهود «هل كان نور بالمحطة يوم المذبحة ؟ » . وأومأ سليم برأسه «كلا» واحنى القضاة الانجليز رؤوسهم وتداولوا واجروا المداولة . وسأل الاستاذ حسن :

- ياخواجة روزاكيس ، قل لنا منذا الذى حافظ على محلجك ضد اللصوص ؟

وأجرى المترجم الترجمة . وكان سليم يتطلع إلى السماء . ابتسم روزاكيس وقال بالعربية :

- أمل أن تكون قضية القتل قد شطبت .

لم يدرك المترجم ما الذى يقصده روزاكيس بإجابته ، وكرر روزاكيس عبارته ، ونقلها المترجم إلى القضاة ، فجاء خطاب المحكمة :

– انهـم يرجونك أن تلزم الرد فى حدود ما سألك عنه المحامى .

تنهد روزاكيس وقال :

– محلجى قام بحراسته واحد من عمالى ، اسمه عرفة (وأشار اليه بأصبعه ضمن جموع المتهمين الماثلين فى القفص) تركت له أربعة بنادق ، عندما غادرت المحلج ، ووجدتها فى الخزانة كما تركتها . أما بالنسبة لبومبة فأنا لا أعرف عنه شيئاً . فهو كان مختبئاً منذ أن قتل مستر كوكسون !

اضطرب القضاه العسكريون ما أن سمعوا ترجمة ما أدلى به من شهادة . طلبوا من حسن والمترجم أن يقتربا منهم وتبادلوا النقاش . اخرج سليم منديله ومسح عرقه . قلص الانجليز أنوفهم مثلما تفعل الارانب . ضايق الانجليز رائحة المسك ، وبحركة من يده انهى الكولونيل القضية : اعدام . المتهم التالى !

هم روزاكيس بالأنصراف . فتح نور شفتيه المزمومتين ، ولم يكن قد انزل عينيه من عليه : وقال له :

– يا يهـوذا . يا عبد المال ، وتابع الشيطان ! ليس لك من قلب ، بل كل همك كيس تجمع فيه النقود والجنيهات ولكن أين لك من مفر ؟ شققت طريقك تمتص دماء العامل والفلاح . وجمعت ثروتك من الحرام . مهلك ، وسوف ترى كيف لاينفع ولا يبقى المال

الحرام . مهلك ! مثل الذئاب سينقض اولادك كل منهم على الآخر ، وهـم يقتسمون تركتك ، لأنك لم تعلمهم أن هناك الهاً آخر غير الذهب ، وليس هناك عبادة أخرى غير عبادة الذهب . لدى أنا أيضاً ابن وإن لم تلق عقابك من الشعب فسيكون عقابك على يديه هو .

وكان يريد أن يقول أشياء أخرى ، ولكنهم كمموا فمه وأخذوه خارجاً .

وفى المساء ، افرج عن عرفة دون أن يرى نوراً . وفى ذات الليلة ، قبيل الفجر ، نفذوا أحكام الاعدام فى المحكوم عليهم . ثم شقوا حفرة كبيرة فى فناء السجن والقوا بجثثهم داخلها . ولكن يبقى شىء ، عندما أحصوا الجثث وجدوها تسعة وأربعين جثة بينما المؤشر أمام اسمائهم بالاعدام فى أوراق الانجليز خمسون احصوها ثانية فوجدوها مرة أخرى تسعة واربعين . كان ثمة جثة ناقصة . واحصوا الجثث للمرة الثالثة فوجدوها من جديد تسعة وأربعين .

أشرق ضوء النهار . غرقت ديروط فى بئر أسود ، وفى السوق كله مضى أصحاب المحلات يقولون للمشترين . «تم شنقهم وقضى الأمر» أنتاب الجميع الأسى والرعب . ولكن ذلك الذى لم توجد جثته كـان بمثابة شمعة ذهبية تخفف من وطأة الظلام المهول .

الفصل السادس عشر

قال بوليفيو :

– أوشك أن أنتهى من حكايتى . بقى القليل ، وستلحق بقطار عودتك .

واستطرد قائلاً :

ولما اخبرنى عرفة بكل شىء ثم صمت ، أمسكت بذراعه ، وقلت له :

– لايحتاج الأمر إلى تفكير كبير . ان الذى لم يجدوه هو أنت .

وقال لى باكيا ، وكان قد سكر :

– كلا ، استبدلنى الانجليز بآخر . أجل ، وقد ذكروه لى . أنه الحمال الاسود الذى يعمل بالمحطة ، والذى كان يجلب النساء للمسافرين . اتذكره ؟

فقلت له :

– اذن . . ربما كان . .

ونهضت واقفاً .

– بومبة !

وانفجر عرفة وسط دموعه قائلاً :

- كلا ، كلا ، انهم شنقوه . ولا أعرف . لا أعرف من بعده ماذا أفعل . كلا ، لاتحدق فى هكذا . أقول لك كلا . اننى لا أخفيه عندى هذه المرة ، بل أمضى انتظره وانتظره ، ولكنه لايسمع له صوت . لقد شنقوه . أنا الذى شنقته ! يتملكنى الخوف . صرت فاقداً للنوم . وأوشك على الجنون .

ولكن منذا الدى كان بإمكانه أن يخلص نوراً من براثن الانجليز ؟ ربما . . ربما . . لو أراد سليم ذلك واراد ، واراده بشدة لأستطاع انقاذه ، سليم وحده ، ولكن لماذا يعرض نفسه للخطر ؟ ما مصلحته فى ذلك ؟ فى كل مرة ، حاول فيها اناس أن يسألوه دون تطرق إلى التفاصيل ، كانت إجابته واحدة لاتتغير . « رحمة الله عليه ! » وهو ما يعنى : أنه مات ، وماذا يعنى هذا غير ذلك ؟

ولم يفقد عرفة صوابه ، وإنما القى بنفسه فى الشراب . واتى الانجليز إلى ديروط بباخرة نهرية عبر الابراهيمية . وقد كانت هذه الباخرة مثار أعجاب هيجلار أيضا . وأرسوها أمام فناء روزاكيس وكانوا يقيمون عليها الحفلات كل ليلة . كما كانوا يبعثون بصناديق الويسكى إلى روزاكيس .

وذات يوم ، ضبطتُ عرفة يمد يده مختلساً بعض زجاجات الخمر . وقلت له منتهراً :

- أنت تفعل ذلك ؟ الاتخجل من نفسك ؟ أنت ؟ أنت ؟

فأجابني قائلاً :

- اني خائف ، ولهذا أشرب ، أشرب كي أشعر بالدفء .

ومع مضى الوقت ، تغيرت الأوضاع فى القاهرة ، وصدر أمر بالعفو . فأطلقوا سراح المسجونين بسجن أسيوط . ورجع إلى ديروط من كانوا مسجونين من أهلها ، استقبلهم الشعب بحفاوة بالغة ممسكين بسعف النخيل . وذهب آل كمانى إلى الاستقبال ، وأخذوا بالاحضان الباشا ، وزينا ، وجرجس حنا . وأقام الباشا حفلاً كبيراً بهذه المناسبة ، وبسط مائدة لم يسبق لها مثيل ، اتسعت لما يقرب من خمسمائة شخص .

انفلت شكسبير من الجموع ، وتسلل إلى غرفتى ، يسأل عن عرفة . وتعانقا أمامى وانخرطا فى البكاء .

ومضى عرفة يقول :

- غير موجود . . غير موجود .

وكان الآخر يطيب خاطره قائلاً :

- بل هو موجود . لاتقنط من رحمته ستتغير الأحوال ، ويأتى زمن غير هذا الزمن . اتذكر ماذا كان يقول : البنادق قليلة . . وهى فى أيدى الباشوات . هذا ما يجب أن يتغير !

ولكـن عرفة ما عاد يصدق شيئاً . وبعد قليل ، ذهب إلى الدير ، وأغلق على نفسه الباب هناك ، وأصبح راهباً . واشترى

روزاكيس من الحكومة أرض الدلجاوى المتنازع عليها بثمن بخس . أدعى أنه يشتريها لتصبح أرضه مساحة مربعة . وقال له كل من الباشا والعمدة «حلال عليك . مبروك» لكن كلاً منهما كان يغلى غيظاً بداخله . وكان لهذا البيع دلالته فقد أصبح لليونانى الثرى حظوة لدى الانجليز ، ونفوذ لدى الحكومة . وهكذا دخل فى اللعبة طرف ثالث ، ومن الآن فصاعداً ستصير اللعبة أكثر تعقيداً .

ثم رحل الانجليز عن ديروط . وأخذوا معهم الباخرة النيلية ، أو بعبارة أخرى ناديهم . وبعد فترة من الزمن ، أوعز روزاكيس إلى بعض اليونانيين أن يقترحوا علـى الزواج من ابنته الكبرى . تغابيت ، وتظاهرت بأنني لا أفهم . وهل سآخذ أنا نفاية من نفايات الانجليز زوجة لى ؟ قد تقول لى وثروتها ؟ وأقول لك ، لقد لعنها بومبة ، وستظل مثقلة بلعنته ؟ ورضيت بأن أبقى عبداً «لخاريكليا» ثم عثرت لنفسى على بنت طيبة فقيرة من المنيا ، وتزوجنا . وفى عام ١٩٢٢ انجبنا بنتاً اسميناها أورانيا . وفى عام ١٩٢٤ رزقنا بولدٍ سميناه فوتى .

وتمتمت قائلاً :

– اورانيا تعنى «سعاد» ، وفوتى يعنى «نور»

ارتسمت على وجه بوليفيو ابتسامة شجنية ، لكن عينيه كانت تقدحان مع ذلك شرراً . وقال :

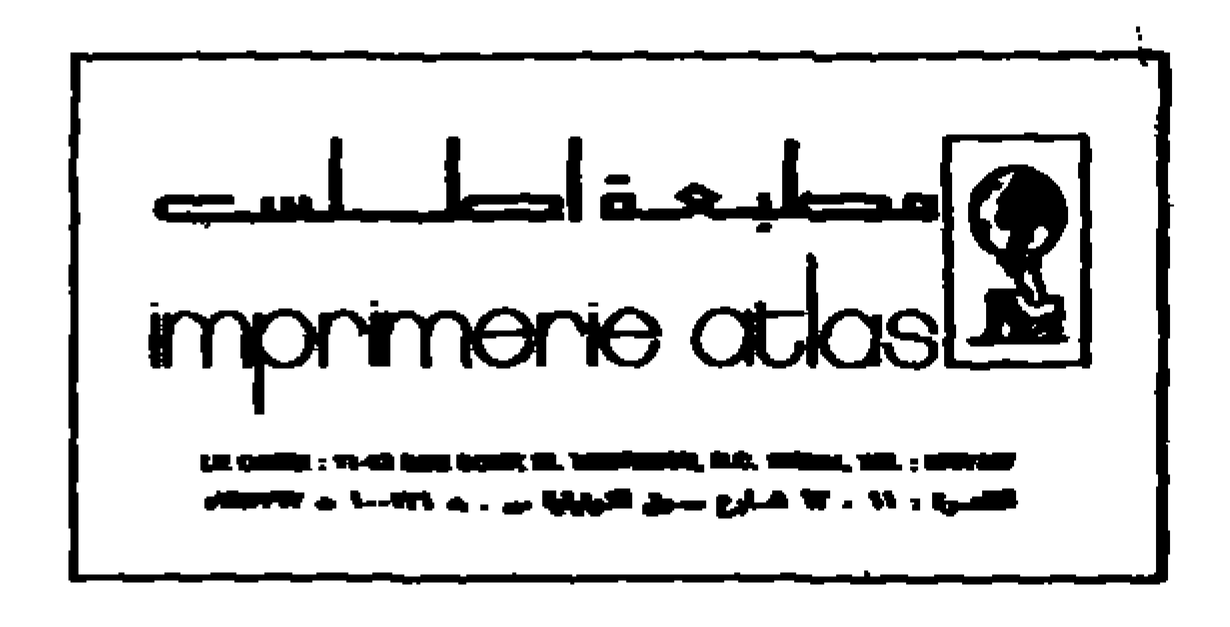
– ايها الرجل الطيب بومبة . دعواتك ، ولعناتك ، كلها تحققت اقتتل ورثة روزاكيس مثل الذئاب عند توزيع تركته . والباشا ، بعد أن كان يملك ثلاثة آلاف فدانٍ ، وعشرة قرى ، لم يبق له سوى مائتى فدان ، وهذه مثقلة بالديون أيضاً . والآن ، أصبحت البنادق فى أيدى الشعب ، وسوف يرى هذا البلد بدوره بركات الله تحل عليه .

لزمت الصمت . ونهض بوليفيو والقى نظرة على «خاريكليا» ليتأكد من سلامة ادائها لعملها . ثم سألته :

– وابنه ؟ ما أخباره ؟

– آه ، نمنم . . . لابد أنه من سنك الآن .

ركبنا العربة ذات الحصان ، واسرعنا إلى المحطة لألحق بقطارى . وكان الليل معبقا بأريج الزهر .


مطبعة اطلس
imprimerie atlas

